يوميات الحزينة

في عمر السادسة عشرة.. وقصص أخرى

ياسوناري كاوباتا

ترجمة: علي زين

صوفيا
Sofia

يومياتي الحزينة

في عمر السادسة عشرة.. وقصص أخرى.

يومياتي الحزينة

في عمر السادسة عشرة.. وقصص أخرى.

ياسوناري كاواباتا

ترجمة: علي زين

صوفيا
Σοφία

يومياتي الحزينة

في عمر السادسة عشرة.. وقصص أخرى

ياسوناري كاواباتا

ترجمة: علي زين

الطبعة الأولى - 2019

ISBN 978-9921-721-16-4

جميع الحقوق محفوظة

صوفيا Σοφία

الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2

البريد الإلكتروني: info.sophiakw@gmail.com

هاتف: 52224643-965+

@sophia_kwt

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

مصممة الغلاف:

أسماء العنيزي

الفهرس

المقدمة 7

اليوميات 9

القصص 73

الزيت 75

جمع الرماد 89

اليدان 96

صلاة باللغة الأم 104

حرق أغصان الصنوبر 116

الشمس الغاربة 127

أميرة قصر التنين 130

العدّو 133

جميلة الحصان 135

الطهارة تحت السقف 139

القمر 141

امرأة 146

غرفة انتظار من الدرجة الثالثة 150

الساعة 155

التاريخ 160

مسقط الرأس 164

هتافان 168

حب مخيف 173

المقدمة

على الرغم من غزارة الأعمال المترجمة والمنقولة عن أدب الياباني «ياسوناري كاواباتا» -الحاصلِ على جائزة نوبل للآداب عام (1968)، والذي يُعد بذلك أول أديب ياباني يحصل عليها- للّغات العالمية، والعربية واحدة منها حيث حظيت بالكثير من أدبه المنقول إليها، إلا أن هذا الأديب الكوني ظل في المحصلة النهائية أسيراً، سواءً بسبب شاعريته وغموضه الشخصي الذي برع فيه- والذي قد لم يفهمه هو نفسه- وشعور الآخرين بغموضه وغموض أدبه. فلم يقع كاتب من قبل في فخّ شديد الإيجاز والاختصار بالتعريف به وبما يكتب مثل «كاواباتا»، حتى على مستوى المقدمات اليسيرة لأعماله العديدة.

لا ريب أن ما يوجد في هذا الكتاب وخاصة اليوميات، هو من أوائل وبدايات ما أحسَّ به وكتبَه كاواباتا الصغير (المولود في 14 يونيو 1899 والمتوفى في 16 أبريل 1972). وكان آخر ما تُرجِمَ له - ويا للغرابة -، فما سيجده القارئ الشغوف بغموض هذا الكاتب هنا هو لا محالة خَلاصه وإحدى مفاتيح فك علامات استفهام هذا المبدع وحيرته ودهشته، الذي عبّر عن طبيعة قلقه وتفكيره وأحلامه بنفسه خلال سطور هذه اليوميات وبينها؛ حيث أرفق الكاتبُ وهو يستعيد تلك اليوميات، والقصص التالية لها، عباراتٍ وضعها بين

أقواس وضمّنها ما كان يتذكره ويفكر فيه حينها بعد أن كَبُر.

جاءت يومياته وقصصه مليئة بالمرض، والموت، والدماء، والجنازات، والمعابد، والحب، والحنين، والخيال، والخرافة، والسريالية، والتاريخ، والطبيعة، وشعور اليتم والفقد للأب والأم والجد والأخت وأفراد عائلته الأقربين كلهم في سن مبكرة؛ ولذلك لم يكن غريباً عندما قرّر «كاواباتا» الحسّي -بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وما خلفته من إبادات وكوارث إنسانية وهزيمة لليابان، أنه لن يستطيع أن يكتب إلا المراثي، فقد بدأ بكتابتها بالفعل وهو صغير قبل أن يعلم أنه سيصبح كاتباً بعد.

هذه أولى اليوميات التي تحوّل وتُصاغ وتُضمّن ببعض الخيال الأدبي الذي اختاره لها كاتبها بطريقة ما، بعد أن عثر عليها وأخرجها من مخزن بيت العائلة، وأعاد كتابتها كما هي مرةً، ومرةً أخرى كما هي ولكن بإضافات وخيال أدبي أكثر تبصرًا وغموضًا.

وهكذا، فإن من حظوظ هذه الترجمة لليوميات والقصص أنها تقدم تعريفاً جديداً لناثر اليابان الكبير وشاعرها، تعريفاً لا يسعى للنبش في سيرة الكاتب ونفسيته وتأويل ما قد يؤوَّل فيها كيفما اتفق، وإنما هو تعريفٌ صادف أن يكون أولًا وصفاً لحياة حقيقية كتبها هذا الكاتب وعاشها في صغره، وثانياً أن يكون هذا التعريف أيضاً مادة حُولت وأضيف إليها الكثير من الخيال والأدب لتبتعد عن الخصوصية، ولتناسب جميع القرّاء.

اليوميات

كان الأمر الأشد غرابة بالنسبة لي، هو أنني عندما وجدت هذه اليوميات في مخزن عمي، لم تكن لدي أي ذكريات في داخلي عن هذه الحياة اليومية التي وصفتها في اليوميات. فأين ذهبت تلك الأيام إذا لم أكن أتذكرها؟ إلى أين اختفت؟ لذلك فكرت وتأملت حينها في الذكريات التي قد يخسرها الإنسان من ماضيه.

ياسوناري كاوباتا

ملاحظة لكاواباتا:

كل ما هو مكتوب بين الأقواس هو إضافات وشروحات قمت بها عندما كنت في السابعة والعشرين من عمري.

4 أيار

كانت الساعة عند الخامسة والنصف تقريباً عندما عدتُ للمنزل قادماً من المدرسة الإعدادية، وكالعادة كانت بوابة المنزل مغلقة وذلك لتمنع الزوار من الدخول؛ ولأن جدي كان ينام وحيداً في المنزل، وبالتالي سيكون مجيء أحد ما أمراً مزعجاً بالنسبة له. (كان جدي حينها مصاباً بالعمى إثر تعرضه لإعتام في عدسة العين).

«وصلت المنزل».

ناديت معلناً وصولي المنزل؛ غير أنه لم يجبني أحد، فعاد المنزل إلى هدوئه الكاتم من جديد.

شعرت حينها بالوحدة والحزن.

ناديت مرة أخرى، وكانت هذه المرة من على مسافة ست أقدام من وسادة جدي:

«وصلت للمنزل يا جدي».

اقتربت إلى مسافة ثلاث أقدام أخرى وناديت بحدة:

«جدي.. لقد وصلت المنزل للتّو».

اقتربت أكثر إلى مسافة خمسة إنشات من أذنه وناديت:

«لقد عدت للتو إلى المنزل».

«آه، أرى أنك وصلت الآن، ولكني لم أجدك هنا لتهمّ بمساعدتي على دخول الحمام منذ الصباح، ولهذا أنا مستلقٍ هنا وأئنّ منتظراً قدومك، لقد كنت أحرك جسدي لأستطيع الاستدارة للطرف الآخر حتى أقابل جهة الغرب، وبسبب هذا الجهد كنت أتأوه.. هلّا أدرتني لأقابل الجهة الغربية؟ هل هذا ممكن؟».

«حسناً، ارجع للوراء».

وعندها قال جدي: «آه، هذا جيد، ضع اللحاف عليّ الآن».

«لم تضعِ اللحاف عليّ جيداً، حاول مرة أخرى».

«هذا... (ونطق هنا جدي بسبع كلمات غير واضحة)».

«آآآه لا يزال هذا غير كاف. لنعيد الكرة مرةً أخرى، هل هذا ممكن؟».

«لا. يكفي،أصبحت أشعر بالراحة هكذا، لقد وضعتَ اللحاف عليّ بشكل جيد. هل الشاي يغلي؟ وهلّا ساعدتني لاحقاً لأتبول؟».

«عليك أن تمهلني دقيقة واحدة فقط، فلا يمكنني القيام بكل شيء لك في وقت واحد».

«أعلم ذلك؛ لكنني أردت فقط أن أذكّرك بذلك فحسب».

ثم عاد جدي بعد لحظة ليقول:

«تعال هنا».

وكان صوته حينها خالياً من الحياة، وكأنه خرج من فم جثة ميتة.

«هلّا ساعدتني على التبول؟ ساعدني أرجوك».

كان جدي ممدداً على السرير بلا حراك يشكو ويئن، ولم أكن أعرف عندها ما يجب عليّ فعله له.

«ماذا عليّ أن أفعل؟». سألته.

«عليك أن تحضر المبولة، وتضع قضيبي داخلها».

لم يكن لدي خيار آخر عندها بعد سماع إجابته تلك، رفعتُ رداءه السفلي، وفعلت ما طلبه مني تماماً رغم شعوري بالغثيان أثناء قيامي بذلك.

هل هو في الداخل؟ يسأل جدي. هل هو كذلك؟ سوف أبدأ بالتبول. هل هذا ممكن؟» وتساءلت لحظتها، هل وصل جدي إلى هذه المرحلة، هل لم يعد باستطاعته الشعور حتى بجسده وأعضائه وقضيبه داخل المبولة؟

«آه! آآه! هذا مؤلم! إنه يؤلم! آه! آه!»، كان جدي يشعر بالألم

كلما بدأ بعملية التبول، لقد كان يتنفس بصعوبة، ويجاهد ليستمر تنفسه، كان يفعل كل ذلك حتى يبدأ صوت بوله يبهت ويتلاشى رويداً وصولاً إلى أعماق المبولة، وكأنه صوت ماء صافٍ ونقي في مجرى الوادي.

«أووه! هذا مؤلم!!».

وعند ذلك الحدّ، تدفقت الدموع إلى سطح عيني عند سماعي لهذا الصوت الذي لم يكن ليحتمل أو يطاق.

***

أصبح الشاي جاهزاً، فعاونته على أن يشرب بعضاً منه، كان شاياً ذا حبيبات خشنة، رفعت الفنجان إلى فمه حتى يتمكن من الشرب، وعندها رأيت العظام البارزة في وجهه، ومقدمة رأسه الرمادي الذي يكاد أن يصبح أصلعاً، وأمّا يداه فكانتا عبارة عن ارتعاشة من العظم والجلد، بينما تبرز تفاحة آدم في عنقه المائل وترتجّ كلما بلع رشفة من السائل.

انتهى جدي من شرب ثلاثة فناجين من الشاي.

«لقد كان هذا جيداً، جيداً بالفعل»، قال ذلك وضغط على شفتيه ومن ثم أكمل:

«هكذا أغذي طاقتي، لقد أحضرت لي أنت ذاك الشاي ذا النوعية

الفاخرة؛ لكني سمعتهم يقولون إنّ شُرب الكثير منه يعادل شرب السم، ولهذا تجدني أشرب هذا الشاي الرديء».

مرت لحظة أخرى، فسأل بعدها:

«هل أرسلت البطاقة البريدية إلى «تسونو»؟»، (وهي القرية التي تقطنها شقيقة جدي).

فطمأنته «نعم، أرسلتها هذا الصباح يا جدي».

«آه، حقاً فعلت؟».

هل أصبح جدي مدركاً لذاك «الشيء المؤكد»؟، وهل يا ترى استشعر عنه شيئاً بطريقة ما؟

(كنت أخاف أن جدي قد جعلني أرسل تلك البطاقة البريدية إلى شقيقته الصغرى، التي لم تكن تكتب له في المقابل، حتى يشجعها على زيارته لأنه كان يشعر أن موته قد اقترب).

حدّقت في وجه جدي الشاحب حتى أصبحت الرؤية في عينيَّ مائيةً بسبب الدموع.

***

بينما كنت أقرأ، أحسست باقتراب أحدهم من المكان.

فنادى جدي: «هل هذه أنتِ، **أوميو؟**».

فأجابت: «نعم».

«كيف كان الأمر يا أوميو؟.»سألها.

اعترى حينها صدري حزن شاسع شعرت بامتداد المه حتى أعماق أطرافي، فاستدرت مبتعداً عن الطاولة. (كنت وضعت طاولة في الممر، كانت «أوميو» مزارعة تبلغ الخمسين من عمرها، وتأتي من منزلها كل صباح ومساء؛ لتطبخ وتقوم ببعض الأعمال لنا).

«لقد ذهبت اليوم، وأخبرتها أنك في الخامسة والسبعين، كما أخبرتها عن سبب بقائك في السرير، قلت لها إنكَ كنت تأكل بشكل جيد لمدة شهر، ولكن دون أي حركة في الأمعاء؛ لذلك أردتها أن تستشير الآلهة في أمرك».

فردت عليّ قائلة: «نظراً لعمره فلا مفاجآت في حالته، هو الكبر في السن لا أكثر».

انطلقت حينها تنهيدة عظيمة من كلا صدريهما معاً، بينما استمرت «أوميو» في الحديث:

«لقد قالت لي: «عندما تأكل جيداً، ولكن دون حركة في الأمعاء؛ فأن هذا يعني أن هناك مخلوقاً يأكل الطعام في بطنك». ولم تقل لي مثلًا: «دعيه يأكل أكثر من السابق، أو أدخلي في حلقه طعاماً أكثر

مما كان يأكل حتى الآن»؛ بل قالت: «إن المخلوق يحب شراب الساكي». وعندما سألتها عن ما علينا فعله، قالت: «ضعي لفافة من «ميوكن» البوذية على جسد الرجل المريض، وأحرقي بعض البخور المبارك في أرجاء الغرفة.»

اضافت «أوميو»:«حتى لو كان داخلك مخلوق ما فلن يصيبك ذلك بالتحوّل الكبير، عدا أنك ستخسر إحساسك بالوقت. لقد كانت شريحة واحدة من السمك الجاف تَعلق في حَنجرتك، إلا أنك أصبحت مؤخراً قادراً على ابتلاع السوشي أو كرات الرز بلقمة واحدة. آه صحيح، لقد بات يقلقني أيضاً اهتزاز تفاحة آدم في حلقك وتمايلها للأعلى والأسفل، فعندما يتلبّس الإله «إيناري» الوسيطةَ ومن ثم يغادرها فإن تفاحة آدم لديها تهتز أيضاً. وعلاوة على كل ذلك، فإنك قد شربت بشكل سيئ الكثير من شراب الساكي من قبل. فأعتقد أن ما قالته الوسيطة اليوم كان في محله.»

«هممممم». حرّك جدي شفتيه.

لم أمتلك الشجاعة الكافية في أثناء ذلك لأقول لهم إن كل ما تقومون به كان مجرد خرافات، لقد كنت مرتبكاً فتغلب عليّ حينها شعور غريب بالقلق. فيما أكملت أوميو:

«عدت بعدها إلى منزلي وأخبرتهم أنني (ذهبت) إلى «إتسوكايشي» (اسم بلدة) لأطلب من الوسيطة أن تخبرني عن

حظك، فقالوا لي حينها: «هل أخبرتك الوسيطة الإلهية فيما إذا كان سيموت؟» فأجبتهم لا، وأنه لن تكون هناك أي مفاجآت في حالته، وأن كل ما في الأمر هو مجرد كبر في السن؛ إلا أنهم قالوا إن ما حدث لك كان بسبب شيطان، فأخبرتهم مرةً أخرى أنني ذهبت إلى «أتسوكايشي» فقط؛ لأطلب قراءة حظك لأنك لم تبدِ أي حركة للأمعاء في أثناء الأكل لمدة شهر.

وأخبرتهم أيضاً: « أنني حالما وصلت إليك، ملأت غرفتك بدخان البخور، وقلت: لا يجب عليك (تقصد المخلوق الذي بداخل جدي) أن تزعج عائلة عريقة بهذا الشكل، وأضف إلى ذلك، لماذا تؤذي شخصاً بهذه الطريقة دون أي سبب؟ فإذا أردت شاياً أو طعاماً، أخبرنا فقط، وسنقدم لك بعضاً منه بطيب خاطر، فتعجل أيها المخلوق وغادر، غادر. لقد ظننت أن باستطاعتي إقناع هذا الكائن بالخروج باستخدام المنطق. ستكون فكرة جيدة في اعتقادي لو قدّمنا الشاي والرز للزاوية الشمالية الغربية، وسيكون ذلك ابتداءً من الغد، فهل تسمح لي أن آخذ سيفاً من مخزن البيت لاستخدمه في إبعاد الشياطين؟ سنخرج السيف من غمده وسنضعه على الحصيرة في غرفة النوم، وسأذهب لأستشير الإله إيناري عبر الوسيطة مرة أخرى غداً».

«هذا غريب جدّاً، أتساءل فيما إذا كان هذا صحيحاً». قال جدي.

«بالفعل، وأنا أتساءل حول الشيء ذاته».

***

أقترب من وسادة جدي، وأقول:

«جدي، جاءت رسالة من أحد يدعى «كانو» من «أونابارا» (اسم بلدة). هل اقترضت من هذا الرجل مالاً من قبل؟».

«نعم، لقد فعلت».

«متى؟».

«منذ سبعة أو ثمانية أعوام خلت».

«حسناً يا جدي».

ها هو دَيْن جديد ينقض عليّ (ما كنت أقصده هنا أنه في ذلك الوقت أخذت أكتشف ديون جدي واحداً تلو الآخر.. ديون كانت قد تراكمت عليه من هنا وهناك).

«لا يمكنك أن تسددها كلها» (هذا ما قالته لي «أوميو» حينها عندما طلبت نصحها في أمر تلك الديون كلها).

***

على العشاء، كان جدي يأكل السوشي ملفوفاً بأعشاب البحر. يا

إلهي.. تخيل! هل يمكن أن يأكل المخلوق الشيطاني بداخل جدي طعاماً كهذا؟ وها هي تفاحة آدم في حلق جدي تتحرك، إن الطعام يدخل بالفعل إلى فم إنسان، فكم هو ساذج، وكم هو أحمق أن أتخيل... لكن عبارة: «هناك مخلوق بداخله يأكل»، كانت قد حُفرت في رأسي، ولم أستطع محوها بسهولة. أخذت سيفاً من المخزن، ولوحت به فوق سرير جدي، ومن ثم وضعته أسفل منه. بعد ذلك، فكرت أن ما قمت به كان تصرفاً غريباً؛ ولكن عندما رأتني «أوميو» أمزّق الهواء بالسيف في الغرفة، قالت بجدية كبيرة:

«هذا هو الحل، هذا هو المخرج»، فوقفت هناك واستمرت في تشجيعي. لكم سيضحك الناس لو رأوني بهذا الشكل، سيعتقدون أنني مجنون بلا شك.

«أوميو. أوميو»..

حلّ الظلام أخيراً. وبين الحين والآخر، وخاصةً بينما كنت أقرأ، كان باستطاعتي أن أسمع صوتاً ضعيفاً وواهناً لجدي، صوتاً كان يرسل ارتجافاً وقشعريرة عبر هواء الليل، ومن ثم صوت خطوات «أوميو» المتكرر في كل مرة تذهب فيها نحو جدي لتساعده على قضاء حاجته. كنت أقرأ وأسمع حتى أحسست أن «أوميو» ذهبت إلى منزلها عبر وقع خطواتها التي كانت تبتعد، فناولت جدي شاياً ليشربه.

«آه، نعم، هذا جيد، جيد جدّاً». تجرع جدي الشاي، واهتزت تفاحة آدم صعوداً ونزولاً، وتساءلت في داخلي فيما إذا كان المخلوق الشيطاني بداخله يشرب من الشاي أيضاً. إنه غباء. غباء. لم يكن هناك شيء بمثل هذه الغرابة في كامل حياتي؛ حيث كنت طالباً في السنة الثالثة من المدرسة المتوسطة.

«آه، كان ذاك جيداً، الشاي جيد، جيدٌ وبسيطٌ، فمن السيئ أن تشرب شاياً ذا مذاق جيد للغاية، آه؛ ولكن هذا جيد.. أين تَبغي يا ولد؟».

عندما قرَّبت المصباح على وجهه، فتح عينيه قليلاً، وقال: «ما هذا؟» آه، تلك العينان التي ظننت أنها لن ترى مجدداً- تلك العينان تستطيع الرؤية! كنت سعيداً حينها بشعوره؛ حيث يتخلل بصيص من الضوء عالمه المظلم. (لم يكن شعوري هذا بسبب أني اعتقدت أن جدي سيشفى من العمى، فمن المرجح أن عينيه كانتا مغلقتين في ذاك الوقت، وكان تفتّح عينيه بسبب حرارة المصباح فقط؛ ولكن ما كان يقلقني بحق هو أن يموت وهو على ذلك الحال).

فكرت بالعديد من الأشياء خلال كتابتي حتى هذه النقطة من يومياتي، انطلاقاً من مظهر تلويحي بالسيف الذي بدا منذ برهة غريباً؛ لا، بل بدا أخرقاً بشدة الآن، إلا أن الكلمات من قبيل: «هناك مخلوق في بطنه يأكل ويشرب» كانت قد تملكتني.

***

تقترب الساعة من التاسعة الآن، «جدي مملوك بكامل للشيطان»، أصبحت عبثية الفكرة أكثر وضوحاً وزيفاً في ذهني أشعر بعقلي الآن كما لو أنه قد غُسل، وأصبح نظيفاً.

إنها حوالي الساعة العاشرة الآن، جاءت «أوميو» لتساعد جدي على التبّول.

«أريد أن أقلب جهتي. ما الجهة التي أقابلها الآن؟ آه، لقد عرفت، جهة الشرق، أليس كذلك؟.» يتحدث جدي ويسأل، ويجيب نفسه.

قالت أوميو: «تنفس هيا».

تأوه جدي: «أووووه».

قالت أوميو: «مرة أخرى».

«آآآه» كان صوت جدي مملوءاً بالألم، «هل أقابل جهة الغرب الآن؟».

«عليك أن تنام الآن، وأنا سأذهب إلى المنزل، ليس هناك شيء آخر لأقوم به لك، أم أن هناك شيئاً آخر عليّ فعله؟!».

وغادرتنا أوميو بعد ذلك بلحظات.

5 أيار

إنه الصباح. لم تكد طيور الدوري تبدأ بالتغريد حتى وصلت «أوميو».

«حقاً؟ مرّتان؟ استيقظت في الثانية عشرة ومن ثم في الثالثة لتساعده على التبوّل؟ إنك صغير جدّاً على تحمل هذا العناء؛ ولكن عليك أن تفكر في الأمر وكأنك ترد ديناً من الامتنان لجدّك. لدينا طفل جديد في المنزل؛ لذلك لا يمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك. تعرف «أوكيكو» أن تنجب طفلاً؛ لكنها لا تعرف كيف تعتني به». (أوكيكو هي زوجة ابن أوميو، وكانت قد أنجبت أول طفل لها في ذاك الوقت).

«فكر في الأمر على أنه ردّ دين من الامتنان لجدّك». أشعرتني هذه الكلمات بالرضى التام.

ذهبت إلى المدرسة، كانت المدرسة بمثابة جنتي، «المدرسة جنتي»، ألا يُخبر هذا الوصف المبالغ فيه لمدرستي بكل ما يدور في منزلي من تعب هذه الأيام؟.

عادت «أوميو» إلى منزلنا قرابة الساعة السادسة مساءً.

قالت لي: «لقد زرتُ ضريحاً آخر، وحدث الشيء ذاته. إنه لأمر

غريب، لم تقل المرأةُ لي هذه المرة أنه كان مخلوقاً؛ بل شيطانٌ. لقد قالت لي أيضاً إنه لم يكن مخلوقاً دون إدراك أو عقل، وليس عليك أن تبذل الكثير من الجهد والضجيج لإخراجه، وقالت أيضاً، وعلاوةً على ذلك، إنه يكبر في السن لا أكثر، «ولن يحدث الأمر فجأة، ولكن بالتدريج، سيصبح جسده رويداً رويداً أكثر ضعفاً».

«بالتدريج سيصبح جسده أكثر ضعفاً». كررتُ هذه العبارة عدّة مرات داخل صدري، وأنا أسمع حديث «أوميو».

قلت لها متمّاً: «لقد فهمت»، وأطلقت تنهيدة.

فيما أكملت هي: «وبعد ذلك، لقد كان كل ما قاله الإله «إيناري» هو عين الصواب، قال الوسيط: «لعله أفضل حالاً هذه الأيام، أليس كذلك؟ لعله لا يأكل ويشرب بشراهة»، يمكنك أنت أيضاً أن ترى ذلك بعينيك، فجدك هادئ اليوم».

اعتقدت أنه من الغرابة أن يتمكن الإله «إيناري» من تخمين وضع شخص مريض. وبدأت بالتفكير مجدداً حول ما إذا كانت هناك مخلوقات بالفعل كالشياطين.

كان الدخان المنبعث من البخور الذي اشتريناه من المال القليل المتبقي في المنزل يدور حول وسادة جدّي، ثم ينجرف على امتداد سريره بتألق، وكأنه جدول خريفي مشرق وصافٍ.

استدركت أوميو: «سيصبح الأمر أكثر صعوبة حين يأتي الصيف»:

رددتُ عليها: «لماذا؟».

«لأننا سننشغل بالعمل في الحقل، ولن أتمكن من القدوم إلى هنا، وحسب ما يبدو لي الآن من مظهره، لا أظن أن جدك سيجلس مجدداً بجانب مِجْمَرة الفحم».

تساءلتُ بدوري في أثناء متابعتي لكتابة هذه اليوميات: ماذا سيحلّ بجدي عند انتهائي من الكتابة، ماذا سيحدث لجدي المؤسف. (كنت قد أعددتُ وجهزت مائة من الأوراق الفارغة؛ إذ كنت آمل أن أستمر بالكتابة حتى أصل إلى مائة ورقة، وكنت قلقاً للغاية من إمكانية موت جدي، قبل أن أصل إلى الورقة المائة. ربما كنت بطريقة ما، أؤمن أن جدي سيكون بأمان وسينجو إذا ما تمكنت من الوصول إلى الورقة المائة وهو على قيد الحياة. والآن وبما أنني أشتبه في أنه ربما بدأ بالاحتضار، تمنيت من كل قلبي أن أنقل على الأقل صورته الحالية إلى هذه اليوميات طالما ما زال باستطاعتي فعل ذلك حتى الآن).

ولمدة من الزمن، غَدت كلمات جدي المتوعكة أقل تناقضاً، أما تلك النظرية القائلة: إن «شيطاناً يسكنه»، فهل كانت خرافةً؟ أم لم تكن خرافة على الإطلاق؛ بل كانت حقيقة؟.

6 أيار

سأل جدي أوميو: «هل ذهب الصبي إلى المدرسة؟».

«لا، إنها السادسة مساءً الآن».

«آه، كنت أظن أيضاً أنها كذلك، ها ها ها»، لقد كانت ضحكته حزينة للغاية، وهو يواري خجله بسبب عدم تمكنه من الإحساس بالوقت.

التهم جدي على العشاء لفافتان رقيقتان من السوشي المغلف بعشب البحر، وذلك بعد أن أودعتها «أوميو» داخل فمه، فابتلعهما كاملة.

تساءل معها جدي اليوم: «أتراني آكل الكثير؟». كنت أستمع لهما وأنا في الحمام، لم يكن جدي يسأل عادةً أسئلة كهذه من قبل.

ومن ثم أردف بعد لحظة:

«ما زال الوقت باكراً، إلا أنني جائع بشدة، أيمكنك أن تطعميني العشاء قبل الصبي؟».

قالت أوميو: «أعتقد أنه قد غادر الحمام لتوّه».

«ربما ذلك».

بدوري لم أتمكن من سماع بقية حديثهما، عدا تكرار ذاك الضحك المأساوي مجدداً، فشعرت بالحزن وقررت مواصلة جلوسي في الحمام.

***

في الليل، كانت الأصوات الوحيدة التي تُسمع في المنزل هي دقات ساعة الحائط، واشتعال ضوء مصابيح الغاز.

أتاني صوت من الغرفة المظلمة في الخلف:

«هذا مؤلم، مؤلم، آاه هذا مؤلم». انطلق صوته ممزقاً، وبدا كأنه يناشد السماء ويستغيث بها. توقف الصوت أخيراً. فساد الهدوء ثم عاد الصوت مجدداً:

«آووه، آه، إنه يؤلم.»

انطلقت صرخاته القصيرة المتألمة والمكتومة، ثم توقفت للحظات ثم بدأت، ثم توقفت مرةً أخرى من جديد، ثم عادت لتبدأ وتتوقف، وهكذا على هذا المنوال، حتى ذهبت إلى النوم.

وبينما كنت أستمع أخذت أكرّر في قلبي: «لن يحدث شيء فجأة، بل بالتدريج سيصبح جسده أكثر ضعفاً».

وعلى الرغم من ذلك كله، كان ذهن جدي أصفى، إذ عاد له إدراكه الاعتيادي، كما أن أكله كان معتدلاً..

وعلى الرغم من ذلك أيضاً، ويومًا بعد يوم، كان جسده...

7 أيار

«أيقظني جدي ليلة البارحة مرة واحدة لأساعده على التبوّل، ومرتين أخريين لأقلبه ولأجلب له الشاي. وبّخني قائلاً حينها: «إذا لم تنهض بسرعة أكبر سينقطع نفسي وأنا أناديك». وذلك لأني كنت قد ذهبت إلى النوم في منتصف الليل فلم أستطع الاستيقاظ».

انتظرت قدوم «أوميو» في الصباح، وتوسلت لها أن تساعدني.

«هذا مؤسف يا بني، إذا تحسن صداعي سأبقى هنا معك حتى منتصف الليل، إنني أتذكر جدّك جيداً، كان حتى في النهار إذا لم آتي لمدة ساعتين، يقول لي بمجرد أن أصل: «قضيت عمري منادياً». فأصبحت أمر به كل ساعة».

كنت أشعر بالنعاس الليلة الماضية، فعندما أيقظني وأخذ يسألني عن العديد من الأشياء السخيفة وغير المنطقية، استأتُ منه، وشعرت بالسخط، وتجاهلته؛ لكنني فيما بعد، عندما فكرت مجدداً فيما فعلته، تحسّرت وحزنت، وبكيت على جدي البائس.

ليس هناك مهمة أبغض إليّ من هذه المهمة، فبعد أن أكلت كشفت اللحاف عن جدي، وأمسكت بالمبولة، وانتظرت عشر دقائق، لكن البول لم ينزل، واصلت الانتظار، حتى أدركت حجم

القوة التي لم يعد يمتلكها، ولم تعد في بطنه ومثانته؛ فتذمرت وشكوت وأنا أنتظر وتمتمتُ: يجب أن يخرج شيء من تلقاء نفسه، ثم طلب مني جدي أن أسامحه، وحين أمعنت النظر إلى وجهه الذي كان يزداد إنهاكاً يوماً بعد يوم، وجهه الشاحب حيث كان ظل الموت يقطن، شعرت بالخجل من نفسي.

أخيراً، سمعته يقول: «أوه، هذا مؤلم، إنه مؤلم، أووه»، بصوته الذي كان ضعيفاً؛ ولكنه مع ذلك كان حاداً بطريقة ما؛ فشعرت بانقباض وتوتر في كتفي وأنا أسمعه، وعندها بدأ صوت اندفاع الرقرقة الواضحة لبوله.

***

عندما كنت على وشك الذهاب إلى المدرسة:

سأل جدي بصوت احتوى على تسعة أجزاء من اليأس متشبثةً بجزء واحد من الأمل: «أتساءل متى سأصبح بحال أفضل؟».

- «سوف تصبح بحال أفضل عندما يستقر حال الطقس». أجبته.

- «أعتذرعن تسببي لك بهذا العناء كله يا بني».

كان صوته ضعيفاً يرتجي الشفقة.

- «حلمتُ أن الآلهة قد تجمّعت وحلّقت معاً فوق هذا المنزل». شَرع في الحديث.

- «من الجيد أنك تؤمن بالآلهة يا جدي».

- «يمكنني أن أسمع أصواتهم، أليس هذا حدثاً مباركاً يا بني؟ أشعر أن الآلهة وبوذا لن يتخليا عني مهما حدث. يكاد هذا الشعور أن يكون مريحاً بالنسبة لي لدرجة لا تصدق».. كان صوته مملوءاً بالرضى.

***

عندما عدت إلى المنزل من المدرسة، كانت البوابة مفتوحةً؛ لكن المنزل كان ساكناً.

«لقد عدت للمنزل»، كررتُ عبارتي هذه ثلاث مرات.

«أوه، هل هذا أنت؟ أتراك ستساعدني على التبول فيما بعد يا بني؟».

«سأفعل يا جدي».

في الليل وبينما كنت أقلّب في أشياء الدُرج أسفل الطاولة، وجدت مخطوط يدعى «نظرية في بناء منزل آمن»، وهو كتاب

أملاه جدي على «جيراكو» (رجل من بلدة مجاورة وتلميذ جدي في فن قراءة الحظوظ وفن قراءة المستقبل ورمال بناء المنازل)، حاول جدي أن ينشر الكتاب، حتى أنه استشار «تويوكاوا» (وهو رجل غني من أوساكا)، إلا أن المخطوط لم يأتِ بشيء يذكر وظلّ مختبئاً في نهاية الدُرج منسيّاً بالكامل.

لم يحقق جدي أياً من طموحاته الشخصية في الحياة. فكل ما قام به كان فاشلاً، فكيف يشعر يا تُرى في أعماق قلبه وهو على حافة الموت؟

آه، وكيف تراه عاش تحت وطأة هذا العناء كله حتى عمر الخمسة والسبعين. يا لقوة قلبه. (كنت أظن أن السبب الذي جعل من جدي قادراً على العيش طويلاً متحمّلاً هذا الحزن كله هو امتلاكه قلباً قويّاً). لقد كان جدي وحيداً تماماً، فقد مات العديد من أولاده وأحفاده قبله، ولم يتبق أحد ليتحدث معه، وإضافة لذلك كله فجدي لا يرى ولا يسمع شيئاً. (كان أعمى البصر ويسمع بصعوبة) حزن الوحدة، ذاك هو جدي، إذا أردتُ تعريفه.

ولكم كانت عادة جدي في تكرار مقولته: «قضيت عمري منادياً»، تعكس وتمثل حقيقة شعوره الداخلي.

(كان تنجيم جدي وضربه بالرمل دقيقاً للغاية؛ لذلك فقد كان

مشهوراً لحد ما بسبب هذا الأمر. كان هناك أناس يأتون من مناطق وقرى بعيدة طالبين منه أن يتفقد مشاريعهم وخططهم. وربما اعتقد جدي أنه بتأليفه لكتاب «نظرية في بناء منزل آمن» ونشره سيحمي الناس من عثرات هذا العالم ومصائبه. بالنسبة لي لم أكن أصدق أو أكذب تنجيمه وضربه بالرمل، فكل ما أذكره حينها هو أنه كان لدي معرفة ضئيلة، وشعور غامض بتلك الأمور، ومع ذلك، ومهما كنا نعيش بعيداً عن مركز القرية، لم أستطع التصديق أنني وفي عمر السادسة عشرة وأنا أدرس في السنة الثالثة من المدرسة المتوسطة، لم يحدث أن أحضرت طبيباً ليفحص جدي ولو لمرة واحدة، جدي الذي كان يعاني من الإمساك لمدة شهر، فبدلاً من ذلك قمنا فقط باستشارة قارئة حظ من «ضريح الإيناري» وتهيأ لنا أنه كان متلمساً بشيطان).

(كما أن جدي كان قد تعرّف خلال عمله مع طاقم المعبد على الرجل الثري المدعو «تويوكاوا»، كان هناك معبد للدير في قريتنا، ويبدو أن أسلافي قد بنوا هذا المعبد منذ زمن طويل، فكانت أبنية المعبد بالإضافة إلى الجبل والغابات والحقول التابعة للمعبد مدرجة باسم عائلتي، فحتى الراهبات كنّ ضمن سجلّ عائلتي. كان المعبد لطائفة «الأوباكو»، وكانت صورة «الكوكوزو» البوذية هي الصورة الرئيسة المعبودة هناك. وفي كل عام، في «رحلة الثالثة عشرة» كان المكان يعج بالأطفال الذين

بلغوا عمر الثالثة عشرة. وكان يفترض أن ينتقل كاهن كان يعيش معتزلاً في معبد جبلي مشهور يبعد ميلين ونصف شمال بلدتنا إلى هذا المعبد. كان جدي ممتناً للغاية لحدوث هذا الأمر، إذ قام بطرد جميع الراهبات وتخلى عن ملكية المعبد. فأعيد بناء المعبد ووُسِّع وغُيّر اسمه. وخلال عملية البناء تلك، احتفظنا بصورة «الكوكوزو» البوذية وبخمس أو ست صور أخرى في ردهة منزلنا. وبسبب هذا فقد ملأت المنزل رائحة حصائر الخيزران التي استخدمت لعدم توافر نقود كافية تسمح لنا بشراء حصائر القش الاعتيادية. أكثر من كان متحمساً لقدوم الكاهن هو الرجل الغني «تويوكاوا»؛ فهو من أعاد بناء المعبد، وهو من مدّ الحصائر في ردهة منزلنا).

***

كنت ألمح من حين إلى آخر مقتطفات من لطف جدي. في هذا الصباح قالت أوميو:

«لقد صنعت كعك الأرز لنحتفل بقدوم الطفل، صنعت ما يكفي لثلاثين عائلة، إلا أننا تلقينا هدايا من أماكن أخرى لم نتوقعها من قبل، فتوجب عليّ صنع المزيد».

فقلت لها: «حقاً؟ ما يكفي لثلاثين منزلاً؟».

- «وأكثر من ذلك يا بني.. ففي بلدة تحتوي على ما يقل عن الخمسين منزلاً، هل تتلقى عائلتك هدايا من هذا العدد الكبير من الناس؟». أجابتني.

بعد لحظات من حديث «أوميو»، أخذ جدي يبكي من فرط سعادته حتى خنقت الدموع حبال صوته. (كان جدي سعيداً بأن عائلة فقيرة تقطن المزارع المستأجرة مثل عائلة أوميو تلقت هذا الكم الكبير من الهدايا من العديد من الناس).

لاحظت حينها كم أن «أوميو» قد شعرت بالحزن والأسى من أجلي، وكيف أن عليّ أن أعتني بجدّي بعد انشغالها بالطفل.

عند الساعة الثامنة مساءً، وبينما كانت تهمّ بالرحيل، قالت لجدي لمرة أخيرة: «هل تريد أن تتبوّل؟».

- « لا».

- «حسناً، إذاً أعتقد أنني سأعود لمرة أخرى لاحقاً».

أردتُ أن أتكلم؛ ولكن الأمر انتهى بي بعدم قول شيء، كنت على وشك أن أقول لها:

«أنا هنا. فلا حاجة لكِ للقدوم مرة أخرى».

8 أيار

كان جدي يتطلع بفارغ الصبر في هذا الصباح لقدوم «أوميو»، وعندما أتت أخبرها عن سوء معاملتي له، وأخذ يتذمر بلا نهاية، ربما كنت على خطأ، لكنني كنت غاضباً لاستيقاظي مرة بعد أخرى خلال الليل لتلبية احتياجاته، أضف إلى ذلك أني أكره مساعدته على التبوّل.

تكلّمت أوميو معي قائلة:

«كل ما يفعله هو التذمّر، وجلّ ما يفكر فيه هو نفسه ولا يهمه الأشخاص الذين يعتنون به، على الرغم من أننا نعتني به بحق، ولكن لا بأس فأنا وأنت نؤمن أن هذا قدرنا المشترك معه».

فكرت هذا الصباح بتركه، والتخلي عنه. لقد اعتدت دائماً قبل خروجي للمدرسة في الصباح أن أسأله إذا كان هناك شيء ما يحتاج إليه، إلا أنني غادرت اليوم دون أن أقول له حتى كلمة واحدة، ولكنني سرعان ما شعرت بالأسف نحوه عندما عدت من المدرسة.

قالت لي أوميو:

«أخبرته أني ذاهبة لأطلب قراءة حظه ذاك اليوم، فقال لي حينها:

شكراً لذهابك من أجلي. إنني أتذكر بصعوبة كيف كنت أتمتع بأكل كل شيء بلقمتين سريعتين، وأظن أني أتذكر أيضاً كيف أنني كنت قادراً على تجرع الكثير من الشراب فيما مضى».

عندما سمعتها تقول هذا، تذكرت مجدداً المخلوق الذي كان يأكل ويشرب في معدته.

تكلم جدي بعد تناولنا للعشاء، وقال:

«سأخبرك يا أوميو بما يدور في ذهني -حديث حميمي- فيمكنك أن تستريحي هنا».

بدت هذه العبارة غريبة بالنسبة لي، «أن تستريحي».

- «من بين كل هذه المصاعب التي نعيشها، ما الذي عسانا أن نشعر بالارتياح بشأنه؟».

تساءلت «أوميو» بهذا الرد ثم ضحكت.

- «كفى كلاماً عن هذا، أعطني عشائي».

ردت عليه أوميو: «لقد أكلت للتو».

- «آه، لم أكن أعرف، لقد نسيت».

***

شعرت بالحزن الممزوج بالاندهاش، لقد غدت كلمات جدي أكثر هدوءاً وكآبةً، بالإضافة إلى أنها باتت عصيةً على السمع مع مرور الأيام، أصبح جدي يكرر ما يقوله مراراً وتكراراً، يعيده عشر مرات، وأحياناً أكثر من ذلك.

حسناً، أنا الآن أجلس أمام طاولتي، وتنتشر أمامي أوراق الكتابة هذه، بينما جلست «أوميو» بدورها واستعدت للاستماع لهذا الحديث الذي أسماه «الحميم» على حدّ وصفه. (كنت أفكّر حينها بكتابة الكلمات التي سيقولها جدي تباعاً بمجرد أن أسمعه).

«أنتِ تعرفين بأمر ختم البنك الخاص بالصبي؟ أليس كذلك. حسناً، ما دمت على قيد الحياة، أود أن أفعل شيئاً حيال هذا الختم، (لم أعرف وقتها ما الذي كان يتكلم عنه جدي)، آه يا أوميو، لقد فشلت في كل شيء، وأضعت العقار الذي كنتُ ورثته عن أسلافي؛ ولكن على كل حال فقد فعلت ما بوسعي، وحاولت محاولات عديدة وجادة، حتى أنني سافرت إلى طوكيو وقابلت أوكوما (أوكوما شيجنوبو). لقد أصبحت ضعيفاً بسبب جلوسي في هذا المنزل، يا إلهي، لقد كنّا نملك ما يزيد عن أربعين فداناً من الحقول، وكل ما أردته بشدة هو أن أجعلها من نصيب الصبي في أثناء حياتي، ولكنني للأسف لم أحقق شيئاً، (منذ أن كان شاباً، حاول جدي الاشتغال على العديد من الأشياء، كزرع الشاي

وتصنيع الجيلاتين النباتي؛ لكن محاولاته كلها باءت بالفشل. ومن ثم كان يشعر بالقلق حول تصميم المنزل، فكان يبني ويهدم ويعيد البناء ويبيع الحقول والغابات مقابل أغنية!. أصبحت إحدى ملكياته -بأسف بالغ- من نصيب صانع شراب الساكي «ماتسو» من بلدة «نادا»، ولطالما كان جدي يفكر باستمرار ويعيد التفكير ظاناً أن باستطاعته استرداد هذا الجزء على الأقل)، إذا استطعت يا أوميو أن أترك للصبي ثلاثين فداناً أو نحوها، فسيكون مستقبله مؤمّناً، ولن يكون عليه أن يتخبط بعد تخرجه من الجامعة، سيكون من سوء الحظ أن ينتهي به الأمر إلى الاعتماد على «شيماكيس» (عائلة عمي) أو على «إيكيداس» (عائلة عمتي)، إذا انتقلت ملكية هذه الحقول إلى الصبي سيكون بإمكانه البقاء في هذا المنزل حتى بعد موتي، وسيكون بإمكانه أن يستشير «غوزن» في أمور حياته (الكاهن الذي قدم إلى المعبد الجديد والذي كتبت عنه سابقاً)، لو أن معي من المال كما مع «كونويكي» (صفة تعني الرجل الغني)، لن يضطر الصبي إلى السعي بجنون وشقاء وراء لقمة العيش، ولتحقيق هذا كله، فقد خططت كما ترين أن أذهب إلى طوكيو؛ لكني لا أستطيع الذهاب مع الأسف، والكلمات وحدها لا تكفي، فإذا تعجلت وجعلت من الصبي سيداً على رأس عائلة صلبة وثابتة، فلن يحتاج إلى أي أحد من الناس ليعتني به طوال حياته. آه، لو أن بإمكاني الإبصار فقط، لكنت ذهبت إلى «أوكوما» ولن يكون هناك

أي مشكلة. أووه، ولكن على كلٍّ فأنا ذاهب إلى طوكيو لا محالة، وأطلب منك أن تتكلمي مع «جيكو» ووزوين» (الكاهن الجديد في المعبد وتلميذه) في سايهوجي (معبد عائلتنا)، فمن فضلك، أخبريهم أنني سأذهب».

بدأت أوميو بالحديث معه قائلةً: «لو فعلت ذلك لأطلق الناس عليك لقب مجنون قبيلة هيغاشيمورا».

(كان لجدي غايته الخاصة وهدفه الشخصي أيضاً في إرادته السفر إلى طوكيو ليرى «أوكوما شيجينوبو». كان جدي يعرف القليل عن الدواء الصيني، وكان أبي الراحل طبيباً متخرجاً من جامعة طبية في طوكيو. حدث أن تعلم جدي بعض الطرائق الطبية الغربية، وعزز معرفته بذلك العلم بإضافة فهمه الخاص لعلم الدواء الصيني، لقد ظلّ جدي يوزّع الدواء على الناس في القرية لمدة طويلة، وكانت ثقته صَلبة في خبرته المكتسبة ذاتياً، ونَمت هذه الثقة بقوة أكثر فأكثر نتيجة انتشار مرض الزحار وتفشيه في البلدة، وقد حدث ذلك في صيف ذاك العام الذي احتفظنا فيه بصور معبد الدير البوذية في ردهة منزلنا خلال إعادة بنائه، والذي كتبت عنه من قبل. ففي قريتنا التي كانت مؤلفة من خمسين منزلاً، أصاب الزحار شخصاً واحداً على الأقل من كل عائلة تقريباً، وهو بذلك يعتبر عدداً كبيراً من الضحايا؛ فسبّب ذلك ذعراً هائلاً

للأهالي مما دفعهم إلى بناء مناطق حجر صحي مؤقتة في مكانين متفرقين. كانت رائحة المطهّرات من تلك الأمكنة تفوح خارجاً بكثافة وصولاً حتى الحقول، حتى أن بعض القرويين قالوا إن المرض ما هو إلا لعنة بسبب نقل تلك الصور البوذية القديمة من معبد الدير، وعلى كل حال، فقد ساعد دواء جدي المصنوع بخبرته في شفاء بعض حالات الزحار بسهولة، كما نجى أيضاً بعض المرضى نتيجة إبقائهم مخبئين في المنازل وإعطائهم من دواء جدي سرّاً بدلاً من أخذهم للمشفى، حتى أن بعض المرضى في مشفى الحجر الصحي رموا الدواء الموصوف لهم وأخذوا دواء جدي بدلًا عنه؛ وذلك لأنه نجح في شفاء بعض المرضى الذين يئس الأطباء من حالتهم. لم أكن أعرف حينها ما قيمة هذا الدواء الطبي في الواقع؛ ولكن ما أعرفه يقيناً أن علاج جدي قد أثبت أن استخدامه كان فعّالاً وناجعاً للغاية. وبعد ذلك بفترة بدأ جدي بالتفكير بجدية في أن يجعل دواءه هذا معروفاً ومنتشراً على نطاق عالمي، فجعل «جيراكو» يكتب طلباً تلقى من خلاله ردّاً بالموافقة والإذن من وزارة الشؤون الداخلية لبيع ثلاثة أو أربعة أنواع من الأدوية التي صنعها، كما طبع جدي حينها حوالي خمسة أو ستة آلاف من ورق اللف التي كانت تحمل اسم المحل «هيغاشيمورا سانريودو»، إلا أن صناعته للدواء في النهاية لم تأتِ بأي نتيجة،إنها لعنته الشخصية التي تطاره اينما ذهب وخطط، ورغم ذلك فقد

ظلت خططه بشأن هذا الدواء تحوم في عقل جدي حتى وفاته، فيا لجدي فقد كان يتمتع بتلك الثقة الطفولية العنيدة، وهكذا فقد كان جدي متأكداً من أنه سيحصل على الدعم الذي يرجوه إذا استطاع فقط الذهاب إلى طوكيو لرؤية «أوكوما شيجينوبو»، ذلك الرجل الذي كان جدي يقدّره كثيراً. وإضافة إلى الدواء، فقد كان يفكّر على الأرجح بطباعة كتابه ذاك حول بناء المنزل الآمن).

واصل جدي حديثه الحميم قائلاً: «لقد نشأت هذه العائلة في زمن «هوجو ياسوتوكي»، واستمرّت لسبعمائة عام، ولا ريب في أنها ستظلّ كذلك في المستقبل، وستعود لمجدها القديم».

- «تتكلم كلاماً كبيراً أيها المُسّن، ويبدو ما تقوله وكأنه سيحدث في أي لحظة». قالت أوميو وضحكت مرةً أخرى.

- «خلال حياتي، لم نحتج يوماً لمساعدة عائلة «شيماكي» و«وإيكيدا»، إلا أننا الآن... ولم أتوقع أبداً أن نصل إلى هذا الحال العصيب من حياتنا، عندما أفكر بما انتهينا إليه يا أوميو؛ فإن ذلك يجعل مني حزيناً للغاية، استمعي لي يا أوميو، وفكري معي بهذه الأشياء التي أشعر بها في قرارة أعماقي».

وجدت أوميو جدي في تلك اللحظات مضحكاً للغاية، فأخذت تنتفض وتتشنج ضحكاً لبعض الوقت، بينما تابعت أنا كتابة كلمات جدّي في يومياتي:

«لقد انتهيت لمرحلة من حياتي لا أملك فيها إلا نفسٌ صدر واحد، فجسدي غدا ضعيفاً، لو كان صلاح حالنا سيُحل بألفين أو ثلاثة كنا استطعنا تدبّر أمرنا؛ لكن مائة وعشرون أو ثلاثون ألف.. لا.. آاااه أنا أطلب المستحيل. وحتى لو لم يمكنني الذهاب إلى طوكيو، لو يأتي «أوكوما» إلى هنا فقط! هل تجدين هذا مضحكاً؟ من فضلك لا تضحكي بهذا الشكل يا أوميو. فلا ينبغي لك أن تسخري من شخص مثلي بهذا الشكل، سوف أجعل من المستحيل ممكناً، هل فهمتِ يا أوميو؟ إذا لم أتمكن من جعل ذلك المستحيل ممكناً فستذهب عائلة عمرها سبعمائة عامٍ إلى الخراب».

«لكن وعلى الرغم من ذلك كله، فأنت لديك الآن هذا الصبي، فإذا أجهدت نفسك محاولاً أن تلتقط نجماً مستحيلاً من السماء، فسينتهي بك الأمر في جعل مرضك أكثر سوءاً».

«هل تظنينني أحمقاً يا أوميو؟». كانت نبرته حادةً هذه المرة. وأكمل:

«فقط لو تبقى في داخلي حياة.. آه، ولو لمرة واحدة في حياتي، كم أودّ أن أرى ذاك الرجل الكبير (أوكوما)، لا أجد جدوى من التراجع الآن يا أوميو. آه، وحتى لو أصبحت بوذيّاً، فأنا أود حفظ هذا الشعور داخل صدري الصغير. عندما تنظرين إليّ يا أوميو، هل تظنين بأنني أحمق؟ هلّا ساعدتني على التبوّل؟ فإذا كان هذا

كله مستحيلاً؛ فأتمنى أن أقع في بركة ماء وأموت.. آآه».

شعرت حينها بالحزن والكآبة يملآن قلبي، لم يحدث أن أبتسمت أبداً في أثناء حديثهما؛ بل كان يظهر على وجهي ذلك التعبير المتألم، بينما كنت أنسخ على الورق كل كلمةٍ ينطق بها جدي.

توقفت «أوميو» عن الضحك. وواصلت الاستماع له وهي تريح وجنة خدها على راحة إحدى يديها.

«فكّرت بدايةً بأن عليّ السفر لطوكيو، وانتهى بي الأمر الآن بهذا الحال أمامكم؛ إذ وقف كل شيء في وجه تحقيق تلك الرغبة داخلي، فليتمجد «آميدا بوذا»، فليحيا «آميدا بوذا»، فإذا كان تحقيق تلك الرغبات كلها مستحيلاً؛ فأتمنى بدلاً من ذلك الشعور أن أقع في بركة ماء وأموت، فلم أعد أملك ما يلزمه الأمر لأحقق ما أريد، فليتمجد «آميدا بوذا»، فليحيا «آميدا بوذا». آآه، أن تغدو شخصاً مضحكاً ومثيراً للشفقة لمجرد أن لديك الشجاعة لتقول ما في قلبك، لا أريد العيش في عالم كهذا. فليتمجد «آميدا بوذا»، فليحيا «آميدا بوذا.»».

يبدو الآن أن ضوء المصباح قد ازداد خفوتاً.

«أووه، أووووه»، وعندها ازداد صوت عذاب جدي علوّاً بالتدريج.

«من الظلم أن تعيش في هذا العالم طويلاً وأنت تتحرك نحو الخلف فقط، فالرجال الذين عاشوا خمسين عاماً وهم يحملون قلوباً قوية مثل قلبي غدَوْا الآن رؤساء وزراء. (في ذاك الوقت، كان «أوكوما شيجينوبو» يحتل منصب رئيس وزراء) فكم هو معيب، وكم هو مؤسف أنه لا يمكنني الحراك حتى، كم هو معيب».

حاولت «أوميو» أن تواسي جدّي وتريحه قائلةً: «إنه سوء الحظ الذي علينا جميعاً أن نصبر عليه ونتعامل معه؛ لكن ألن يكون جيداً إذا شقّ الصبي طريقه بنفسه في هذا العالم؟».

«يشق طريقه بنفسه هاه؟! أعرف إلى أي مدى سيصل في النهاية». وصرخ جدي بعدها مصوباً نظره وحملقته نحوي، يا له من عجوز أحمق وخَرف.

«قد يكون ذاك صحيحاً يا بني؛ يمكنك شق طريقك بنفسك كما تقول أوميو، لكن عليك أن تعرف بعد أن تتخذ قرارك هذا، انه لا ينبغي أن تكون حاسداً للناس الذين يملكون الكثير من المال. انظر إلى «ماتسو» وانظر إلى «كاتاياما». فما يهمّ حقّاً في النهاية هو شخصية المرء». (كان ماتسو بائع الساكي، وكاتاياما، أقرباء لنا، ومر كلاهما بأزمات ومحن).

«يحيا آميدا بوذا».

لاحظت الآن التماع لحية جدي الفضية الطويلة وإشراقها تحت ضوء المصباح، ولكم كان مظهره يبدو حزيناً.

«لم يعد لديّ أيّ تعلّق بهذا العالم، فالعالم الآخر أصبح أكثر أهمية بالنسبة إليَّ من هذا العالم؛ لكنّي لا أريد الذهاب إلى الجنّة بعد أن فشلت بفعل ما يستحق، وظللت أجذّف للوراء طوال حياتي».

كانت «أوميو» تنتظر أقرب استراحة من كلام جدّي لتحاول أن توضح لي سبب مزاجه المريض والعكر هذا؛ فقالت لي بعدما توقف جديّ عن حديثه لبرهة: «أراد منذ مدة أن يأتي له الكاهن من معبد «سايهوجي»؛ لأن لديه أموراً أراد مناقشتها معه؛ لكنهم ظلّوا يقولون ويكررون لي إن الكاهن قد خرج، فشعر جدّك بالإهانة من هذا التصرف المتكرر منهم».

في الحقيقة لقد شعرت أنا أيضاً بالإهانة، وتعاطفت مع جدّي، فلم يكن ينبغي لهم أن يماطلوه بهذه الطريقة، وخاصة أن تلك كانت رغبته الأخيرة قبل مماته.

«في هذا العالم، ومع نوعية أولئك الناس... ولم يتخرج بعد من المدرسة المتوسطة.. وسيشق طريقه بنفسه... آآه..».

احتقرني جدّي كثيراً في هذا اليوم.

وأخيراً أدار ظهره إليّ، وصوب وجهه بعيداً عني؛ ففتحت كتابي لأدرس لامتحان اللغة الإنكليزية في الغد. لقد غدا عالمي محموماً وقاسياً كما لو أنني قد حُشرت بين أربعة جدران، لم يكن صوت جدي هذه الليلة من هذا العالم.

بعد أن تركتنا «أوميو» وذهبت إلى منزلها، أخذت أفكر في إخبار جدي عن آمالي للمستقبل، وأن أحاول تهدئته قليلًا.

امتد الليل حتى وقت متأخر..

وفجأةً تكلم جدّي كما لو كان يتكلم من أعماقه: «إن مسار حياة الإنسان شيء صعب».

فرددتُ عليه موافقاً:

«نعم، إنه صعب».

10 أيار

هذا ما حدث معي في الصباح:

سألني جدّي: «ألم يأتِ كبير الكهنة من المعبد بعد؟».

أجبته: «لا، لم يأتِ بعد».

«لم يعد يأتي «جيراكو» على الاطلاق مؤخراً، كان يأتي كل يوم، أليس كذلك؟ كم أود لو يقرأ وجهي لمرةٍ أخيرة ويخبرني عن حظي».

«لم يتغير وجهك يا جدي منذ آخر مرة، لا يمكن لوجهك أن يتغير بهذه السرعة».

«لن أهدأ بسهولة حتى يأتي كبير الكهنة، وأطلب منه المشورة، فبعد أن أحصل على قراءة لوجهي سأعرف عندها ما عليّ فعله».

تجلّى عزمه الآن في نبرة صوته الراسخة تلك.

«أودّ أن أرى جيراكو».

فهمستُ حينها متسائلاً وكأنني أهمس لنفسي: «ما الخير الذي سيكون في إنسان مثل جيراكو؟».

14 أيار

استيقظت على صوت جدّي منادياً: «أوميو.. أوميو، أوميو».

فسألته وأنا أنهض: «ماذا هناك؟».

«هل أتت أوميو؟».

«ليس بعد، إنها حوالي الثانية صباحاً يا جدي».

«آه، حسناً».

ومنذ ذاك الوقت وحتى الصباح، ظلّ جدّي ينادي على «أوميو» كل خمس دقائق، وكنت أستمع له كما لو كنت داخل النوم وخارجه على السواء. جاءت «أوميو» بحلول الساعة الخامسة صباحاً.

وعندما عدت للمنزل من المدرسة، تحدثت «أوميو» إليّ قائلةً:

«كل ما فعله جدك هو أنه مضى طوال النهار يطلب الأشياء، فلم أستطع أن أبتعد عنه ولو للحظة. «ساعديني في التبوّل». «اقلبيني». «أعطيني بعضاً من الشاي». «أحضري لي بعض التبغ». ولم أتمكن من العودة لمنزلي منذ أن أتيت إلى هنا في الصباح».

«ربما عليّ الاتصال بالطبيب». أخبرتها باقتراحي.

كنت أفكر في هذا الخيار لبعض الوقت؛ لكنك تحتاج إلى المال

لكي تتصل بطبيب جيد، وبما أن جدي لا يؤمن بالأطباء كثيراً، فخشيت أن يستفزه فحص الطبيب وتشخيصه له، ولا أعلم كيف سأتصرف حينها لو حدث وأهان جدي الطبيب في أثناء وجوده.

***

قال جدي في هذا الصباح:

طبيب هاه! سيكون مقص أظافر ذا فائدة أكثر من فائدة الطبيب.

وفي الليل استمر في ندائه:

«أوميو.. أوميو. أوميو».

تجاهلت صرخاته متعمداً حتى أقتربتُ من أذنه:

«ماذا تريد يا جدي، ما الذي يحدث؟».

«هل ذهبت أوميو؟ لم تقم حتى بإطعامي وجبة الإفطار.»

«ألم تتناول عشاءك للتو يا جدي؟ لم تمرّ ساعة على ذلك».

بدا وجهه باهتاً وبليداً بعدما اجبته، ولم أستطع أن أتبين فيما إذا فهمني أم لا.

«اقلبني».

قالها ثم أخذ يشكو لي؛ ولكنني لم أستطع فهم أي شيء مما قاله، فكنت أسأله مراراً عن معنى ما يقوله؛ ولكنه لم يكن يجب على الإطلاق.

«هلّا أحضرت لي بعض الشاي؟(بدأ بالحديث من جديد)... آه، إن هذا الشاي فاتر. أوه، إنه بارد أيضاً. هذا الشاي ليس جيداً على الإطلاق». كان صوته مستفزاً بقسوة..

«افعل وقل ما تشاء يا جدي». قلت له، ثم تركته جانباً دون أن أضيف أي كلمة أخرى.

وبعد لحظات:

«أوميو.. أوميو».

لم ينطق وينادي جدي بعد ذلك باسمي أبداً.

«ماذا تريد؟».

«هل ذهبتِ إلى «إيكيدا» (قرية تبعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر ميلاً عن منزل عمتي) وهل رأيتِ إيكيشي؟». كان يظن أنني أوميو.

«لم أذهب إلى أي مكان يا جدي ولا حتى إلى إيكيدا».

«أوه، وأين ذهبت إذن؟».

«لم أذهب إلى أي مكان.»

«هذا أمر غريب.»

وعلى العكس منه، فأنا من كان ينبغي له أن يشعر بالغرابة تجاهه، فكنت أتساءل داخلي عن دافعه ليسأل عن شيء كهذا. ومن ثم وبينما كنت أكتب مقالاً لواجبي المدرسي، نادى جدي مجدداً:

«أوميو. أوميو. أوميو» أخذت مناداته ترتفع تدريجيّاً، حتى بدا وكأنه يجد صعوبة في التنفس.

«ماذا تريد؟».

«ساعدني على التبوّل»

«حسناً، أوميو ليست هنا الآن، والساعة الآن قد تجاوزت العاشرة مساءً.»

«هلّا أطعمتني شيئاً؟.»

وعندها شعرت بالذهول.

كانت قدما جدي ورأسه مليئة بالتجاعيد، لمستها فكان لها ملمساً يشبه ملمس رداء من الـ «كيمونو» الحريري القديم والمهترئ؛ ففكرت أنني لو قرصت جلده فسيظل في مكانه كثنية قماش ولن يعود لوضعه الطبيعي.

شعرت بالبؤس لحالي في نهاية تلك الليلة، فجلّ ما كان يقوم

به جدي طوال النهار هو جرح مشاعري، ظللتُ أنظر له، لقد لاحظت أن وجه جدي يصبح مع مرور الوقت أكثر، فأكثر غرابةً، وإلى أن شعرت بالنوم، كان رأسي ممتلئاً بمشاعر سيئة بسبب تأوه جدي المتقطع.

15 أيار

على مدى الأربعة أو الخمسة أيام التالية، كان على «أوميو» القيام بأعمال أخرى مهمة بالنسبة لها، وبسبب ذلك الانشغال فستأتي «أوتسون» (المرأة العجوز التي كانت تقطن في المنزل الذي يقع عند مدخل البلدة) بدلاً عنها.

عندما عدت إلى المنزل من المدرسة، تحدثت مع «أوتسون»:

«أوتسون، لقد طلب منك جدي أشياء غير معقولة أليس كذلك؟».

«لا، على الإطلاق، فعندما سألته عمّا يمكنني القيام به لأجله، قال إنه بحاجة إلى التبوّل؛ ولكنه كان هادئاً جدّاً».

تأثرت للغاية من تحفظ جدي ذاك.

بدا لي أنه يتألم كثيراً اليوم، حاولت أن أهدئه لكن الصوت الوحيد الذي خرج منه كان «أوه، أوه» مراراً وتكراراً، فلم أكن أعرف ما إذا كان تأوهه هذا جواباً على شيءٍ ما أم كان مجرد تأوهٍ بسبب الألم فحسب. كان صوت ألمه يتردد بأصداء عميقة ومزعجة داخل رأسي، فجعلني ذلك التردد أشعر كما لو أن حياتي تتمزق بعيداً قطعةً بعد قطعة.

«أوه، أوه، أوميو، أوميو، أوميو، أوميو، أوه، آه، أه».

«ماذا تريد؟».

«أريد أن أتبوّل، أسرعي، أسرعي.»

«حسنًا، سوف ألتقط قضيبك».

انتظرت لخمس دقائق ممسكاً بالمبولة في مكانها المعتاد.

«أسرع وأحضر المبولة».

لم يكن لدى جدي الأعمى أي إحساس بالمبولة، فشعرت بحزني البالغ وأشفقت عليه.

ارتفعت حرارته اليوم، فانتشرت بدورها تلك الرائحة العطنة في الهواء.

أخذت أقرأ كتاباً على طاولتي.

كان أنينه طويلاً وحادّاً.

بينما بدأ مطر الصيف الباكر في الهطول ابتداءً من هذه الليلة.

16 أيار

في حوالي الساعة الخامسة مساءً، جاء «شيروبي» لزيارة جدّي (وهو رجل مسن من عائلة فرعية، وأقول عائلة فرعية؛ ولكن ذلك ما هو مسجل فقط في السجلات الرسمية، فلم يكن قريب دم، ولم يكن لدى جدي أي صلات وثيقة معه). تحدث «شيروبي» مع جدي عن بعض الأشياء ليواسيه قليلاً، وكان رد جدي الوحيد على حديثه هو أن يتأوه. قدم لي «شيروبي» الكثير من النصائح، ومن ثم غادرني قائلاً: «إنك صغير جدّاً على كل هذا العناء حولك».

بعد الساعة السابعة:

صحتُ قائلاً: «سأخرج للعب». وانطلقت خارج المنزل، ومن ثم عدت للمنزل حوالي الساعة العاشرة، وعندما وصلت إلى البوابة سمعت:

«أوتسون، أوتسون». كان باستطاعتي سماع جدي وهو ينادي بصوته الذي كان لا يكاد يتحمل جهد المناداة.

فأسرعت للداخل: «ماذا تريد؟».

«أين أوتسون؟.»

«لقد ذهبت للمنزل، إنها الساعة العاشرة.»

«هل أطعمتك أوتسون العشاء؟».

«نعم، لقد أكلت».

«أنا جائع الآن. هلّا أحضرت لي شيئاً لآكله؟».

«لا يوجد أي طعام في البيت».

«حقّاً.. حسناً، ماذا عساي أن أفعل الآن؟».

عليّ أن أقول: إن محادثتنا لم تكن تجري بهذا الترتيب بالضبط؛ إذ كان جدي يكرر الأشياء السخيفة ذاتها مراراً وتكراراً. فكان يقول لي مثلاً إنه سمع ما قلته له وفهمه، ومن ثم ينسى فوراً، ويسألني عن الشيء ذاته مجدداً، فكنت أتساءل ما نوع تلك المشكلة في ذاكرته؟

1914

كلمة ختامية - 1

كانت هذه نهاية اليوميات. بعد عشرة أعوام من كتابتي لها، هذا ما وجدته في مخزن عمي «شيماكي»، يوميات كانت مكتوبة في قرابة ثلاثين ورقة من أوراق المدرسة الإعدادية، ولعل هذا كان كل ما كتبته. فعلى الأرجح أنني لم أستمر في الكتابة بعد تلك الفترة؛ لأن جدّي توفي في ليلة الرابع والعشرين من أيار، وكان آخر يوم شملته اليوميات هو السادس عشر من أيار، أي قبل ثمانية أيام من وفاته. أتذكر أن مرض جدي بات أكثر سوءاً بعد اليوم السادس عشر، وأصبح المنزل في فوضى واضطراب عارمين، ولم يكن مناسباً أبداً لمواصلة كتابة اليوميات.

كان الأمر الأشد غرابة بالنسبة لي، هو أنني عندما وجدت هذه اليوميات في مخزن عمي، لم تكن لدي أي ذكريات في داخلي عن هذه الحياة اليومية التي وصفتها في اليوميات، فأين ذهبت تلك الأيام إذا لم أكن أتذكرها؟ وإلى أين اختفت؟ لذلك فكرت وتأملت حينها في الذكريات التي قد يخسرها الإنسان من ماضيه.

ومع ذلك، فقد ظلت هذه الأيام حيّةً في حقيبة جلدية في مخزن عمي، وعادت الآن إلى الحياة في ذاكرتي، كانت تلك الحقيبة الجلدية تعود لوالدي الطبيب الذي كان يحملها في زياراته

للمنازل. أفلس عمي مؤخراً بسبب فشل ذريع في السوق حتى أنه خسر منزله، وقبل أن ينتقل المخزن لشخص آخر، بحثت في داخله عن أي شيء يخصني قد يكون مخبأً هناك، وحينها فقط اكتشفت وجود هذه الحقيبة القديمة المقفلة، وعندما قطعت بطنها الجلدي بسكين كانت مُلقاة إلى جوارها، وجدتها مليئة بالجرائد من أيام شبابي، ومن بين تلك الجرائد وجدت هذه اليوميات، أو بالأحرى وجدت نفسي وجهاً لوجه مع ذكريات الماضي المنسي ومشاعره؛ ولكن كان هناك أمر غريب، فقد كانت صورة جدي في هذه اليوميات أكثر بشاعة مما كانت عليه في ذاكرتي، فقد جمّلت ذاكرتي صورته وهذبتها خلال العشرة أعوام الماضية.

لم أتمكن من تذكر الأيام الواردة في هذه اليوميات، ولكني تذكرت بطبيعة الحال أول زيارة للطبيب لمنزلنا، وتذكرت أيضاً يوم وفاة جدي. وعلى الرغم من أن جدي كثيراً ما شعر بازدراء شديد للأطباء وانعدام ثقة فيهم، إلا أنه عندما قابل هذا الطبيب أخيراً، أسلم نفسه لرعايته وقدم له الشكر ممتناً، في حين كانت الدموع تتدفق من عينيه. وعلى العكس كنت أنا من يشعر أنه اساء فهم جدّه، أشفقت على حالته كثيراً، فقد كانت رؤيته بتلك الحالة مؤلمة جدّاً.

توفي جدي في مساء الجنازة الكبيرة التي أقيمت لأرملة الإمبراطور «ميجي». فكنت حائراً فيما إذا كان عليّ حضور واجب العزاء المحلي هذا؛ إذ كانت مدرستي المتوسطة في منطقة تبعد

تقريباً أربعة أميال جنوب بلدتي. ولكنني لسبب ما غير مشكلة بعد المدرسة حيث مكان التجمّع، شعرت بالقلق وأردت بشدة أن أحضر المراسم مهما حدث، لكن ماذا لو مات جدي في غيابي؟

طلبَت «أوميو» إذْنَ جدي حول الموضوع.

فعادت تشجعني قائلةً: «الحضور مسؤولية كل مواطن ياباني؛ لذلك اذهب، هيا».

- «هل سيبقى جدي على قيد الحياة إلى حين عودتي؟.»

- «نعم، سيبقى. هيا اذهب».

ولأنني كنت قلقاً من التأخر على المراسم، انطلقت مسرعاً في الطريق، فقطعتُ واحدة من أربطة حذائي القبقابي (كنا في ذلك الوقت نرتدي الملابس اليابانية في مدرستنا)، فعدت إلى المنزل كئيباً، وتفاجأت من قول «أوميو»: إن القول بأن حدوث قطع لرباط القبقاب دلالة على سوء الحظ ما هو إلا خرافة قديمة؛ فحثّتني على تبديل القبقاب والعودة سريعاً إلى المدرسة.

عندما انتهت المراسم، شعرت بعدم الارتياح، أذكر أن الفوانيس التي وضعت لتُضاء من أجل الحفل التذكاري والتي كانت معلّقة على منازل البلدة كانت مشعّة؛ ومعنى ذلك أن الليل كان لا بدّ قد هبط، فخلعت قبقابي وركضت حافي القدمين على طول الطريق إلى المنزل، وظلّ جدّي على قيد الحياة حتى بعد منتصف الليل

في تلك الليلة.

وفي شهر آب من العام الذي توفّي فيه جدّي، غادرت ذاك المنزل، حيث أخذني عمّي، ولكم كنت أتألم عندما أفكّر كم كان جدّي متعلّقاً بذلك المنزل، ولكم تألمت أكثر لاحقاً عندما بعت العقار. ومن ثم، ومع انتقالي من منازل الأقارب إلى السكن الطلابي إلى الغرف المستأجرة، خرجت مفاهيم البيت والأسرة من ذهني، وكل ما كنت أراه حينها هو مجرد أحلام ليلية أظهر فيها كمتجول تائه. ظلّ مخطط نسب أجداد عائلته، والذي تردد جدي في إبرازه للأقارب، تحت رعاية عائلة «أوميو»، والتي كانت أكثر عائلة وثق بها جدّي، وحتى اليوم ما زال السجل مخبأً في درج مقفول في مذبح أسرة «أوميو» البوذي، ورغم ذلك لم أرغب أبداً في رؤيته ولو للحظة، ومع هذا أجدني لا أشعر بأي ندم محدد تجاه جدّي لعدم اكتراثي بهذا الأمر، وذلك فقط لأنني أؤمن ولو بشكل غامض بحكمة الموتى وإحسانهم وتغاضيهم بعد الموت.

نُشرت في مجلة بونجي

آب

أيلول

1925

كلمة ختامية - 2

نشرتُ «يومياتي في عمر السادسة عشرة» في عام 1925 عندما كنت في السابعة والعشرين، إلا أن اليوميات تعود لعام 1914، أي عندما كنت بعمر السادسة عشر، وهي أقدم كتاباتي التي نشرتها؛ لذلك فقد أضفتها إلى النسخة الأولى من مجلد أعمالي الكاملة، (حسبت السادسة عشرة هنا حسب الطريقة القديمة بحساب أعوام التقويم، ولكن الحقيقة هي أنني كنت أبلغ حينها الرابعة عشرة).

أضفت كلمة ختامية عندما نشرت اليوميات، وأوردت فيها أغلب ما أردت قوله عنها، ولكن بما أنني كتبت تلك الكلمة الختامية كعمل أدبي، فلا بد أن بعض الأجزاء جاءت مختلفة عما حدث في الواقع، فمثلاً، كنت قد كتبت: «أفلس عمي مؤخراً نظراً لفشل تعرض له في السوق حتى أنه خسر منزله»؛ لكن حقيقة ما حصل هو أن ابن عمي وليس عمي هو من باع المنزل، وأظن أن ذلك كان بعد وفاة عمي. فعمي كان رجلاً حذراً ومستقراً.

هناك أيضاً الجزء المتعلق بحقيبة والدي الطبية المليئة باليوميات من سنواتي الأولى، وفي هذا الجزء مبالغة، فما زلت أحتفظ بغالبية اليوميات من سنيني في المدرسة المتوسطة وهي ليست بالكثيرة.

أذكر الحقيبة التي استخدمها والدي في زياراته الطبية؛ ولكنها لم تكن تلك الحقيبة التي كان يحملها طبيب في زمانه، فقد كان لها قعر عريض كحقائب السفر، كما أنني لا أذكر الآن عدد الصفحات، مع أنني كتبت: «كانت اليوميات مكتوبة في قرابة الثلاثين من ورق المدرسة المتوسطة». وبعد أن نسختها في عمر السابعة والعشرين، مزقت النسخة الأصلية ورميتها بعيداً.

على كل حال، عندما استخرجت كامل يومياتي القديمة في أثناء تدقيقي لأعمالي كافةً، وجدت صفحتين تحت عنوان: «يومياتي في عمر السادسة عشرة »، وهي عبارة عن الصفحة الواحدة والعشرين والثانية والعشرين. وعندما أعدت نسخ اليوميات في عمر السابعة والعشرين، انفصلت تلك الصفحتين بطريقةٍ ما ولم أتمكن من نسخهما، ولكنني واثق من أنني لم أقدم على تمزيقهما أبداً.

كان على هاتين الصفحتين أن تكونا جزءاً من «يومياتي في عمر السادسة عشرة»؛ لكنهما ظلتا غائبتين، ولم يكن هناك أي تاريخ عليهما، لكنها حتماً كانت متابعة لتلك اليوميات فقررت أن أوردهما هنا، وبعد ذلك سوف أمزق هاتين الصفحتين وأرميهما أيضاً وها هما الصفحتان:

«أشعر أنني لست بخير، آه، يموت الناس وهم لا يستحقون ذلك». بالكاد استطعت التقاط ما قاله جدي إذ كان صوته خافتاً جدّاً.

سألته: «هل مات أحدهم؟.»

«(كلمات غير واضحة من جدي)».

«هل تقصد نفسك يا جدي؟»

«كل من في هذا العالم سيموت».

«ماذا؟».

لم تكن هذه الكلمات ستبدو غريبة على الإطلاق لو أنك سمعتها من إنسان عادي، ولكن لم يكن قلبي ليسمح لمثل هذه الكلمات أن تخرج من روح جدي دون أن أفكر فيها؛ ففكرتُ حينها بالارتباطات الممكنة كافةً لما قاله، فتملكني نوع ما من القلق، (يوجد خمس كلمات هنا غير واضحة في المخطوطة).

يستمر أنين جدي متقطعاً على فترات، قصيراً وضعيفاً، بدا جدي وكأنه يُخرج نفسَه على دفعات محمومة بذلك الأنين، إن حالته بلا شك تزداد سوءاً.

«أوميو؟ ماذا حصل لي؟، في الصباح، والليل، وفي أوقات

الغداء، والعشاء، لقد عشت تلك الفترات وكأنني في حلم، أووه، كم أكره يا أوميو أن يتم الاعتناء بي: «لو أنكِ فقط تطعمينه فسيكون كل شيء على ما يرام». فبعدما استمعت إلى الحديث عن الآلهة في ذلك اليوم، شعرت بأثره في عقلي، فهل تخلت الآلهة وبوذا عني؟».

فأجابته أوميو: «إن الأمر ليس كما تظن، فالآلهة سوف تعتني بك بشكل جيد».

فتكلّم جدّي بعد ذلك كما لو من أعماق تجويف، متذمراً: «أوه، لقد استخدمته على مدى عام ولكن دون جدوى». (كان قد استخدم القرض لعام كامل دون أن يدفع الفائدة المترتبة عليه)، فقلقت بدوري واضطربت، وخفت من أجل عشرة «ريو» فقط.

أعاد جدي ما قاله لأكثر من عشر مرات، وعندما واصل حديثه أصبح تنفسه تدريجيّاً أكثر تكلّفاً.

فاقترحت عليه أوميو: «لم لا نطلب من الطبيب أن يلقي نظرة عليك؟». فأجبتها موافقاً بهزة برأسي، وكانت تلك الإيماءة كل ما كان بوسعي فعله.

«جدّي، لم لا نطلب من الطبيب أن يفحصك؟ سيكون من المؤسف لعائلتك أن تزداد حالك سوءاً» (لم أسجل هنا كيف

كانت استجابة جدي ورده عليّ حينها، وعلى الرغم من أنني توقعت رفضه بسهولة، إلا أنه فاجأني بقبوله بخنوع واستسلام، وأتذكر الآن بألم بالغ كيف جعلتني تلك الاستجابة أشعر بالحزن).

طلبنا فوراً من المرأة العجوز «أوتسون» أن تهرع إلى الطبيب في منطقة «يادوجاوارا».

وفي أثناء غياب «أوتسون» تحدثت «أوميو» مع جدّي:

«تلقيت أنا وأطفالي المال من «سانبان» (اسم القرية التي يقطن فيها عمّي)، واقترضت ذلك الجزء الخاص لـ«كواباتا» من «تسونوي» (القرية التي تقطن فيها شقيقة جدّي الصغرى) وتم دفعه، فلا تقلق».

«حقاً يا أوميو؟ لقد أفرحني ما قلتيه.»

وبالفعل كان ذاك باعثاً على السعادة الحقيقية لجدّي في خِضمّ عذابه.

«أنت تشعر بالراحة الآن، عليك أن تترّنم بصلاةٍ لبوذا.»

«فليتمجد آميدا بوذا، فليحيا آميدا بوذا».

آه، شعرت حينها أن حياة جدي لن تستمر طويلاً، ولا أظن أنه سيعيش بما يكفي بالنسبة لي لكي أتمكن من الانتهاء من الكتابة

على الأقل، (كنت قد أعددت مائة ورقة للكتابة)، لقد بدا ضعف جدّي بشكل واضح في الأيام القليلة التي غابت فيها «أوميو» عنّا، ويبدو الآن أن علامات الموت قد تمكنت من الجثوم عليه.

وضعت قلمي جانباً، ودخلت في حالة من الذهول مفكراً فيما سيحدث لي بعد موت جدّي، آه، يا لنفسي البائسة والمتألمة، أحسست أنني سأظل وحيداً في السماء وفي الأرض.

استمر جدّي بترديد إنشاده، ثم قال: «عندما استمعت لهذا الخبر، ارتخى بطني قليلاً، فمنذ لحظات فقط كان متوتراً».

عادت «أوتسون»، وأخبرتنا أن الطبيب كان قد خرج قبل وصولها له.

«سوف يعود من أوساكا غداً؛ ولكن إذا لم يكن ذلك قريباً بما يكفي لكم، يمكننا أن نسأل عن طبيب ما في مكان آخر».

فسألت أوميو: «ماذا علينا أن نفعل؟».

فأجابتها أوتسون: «أعتقد أن الأمر ليس بتلك العجلة».

فقلت لها: «أوافقك، لا أعتقد أن هناك أي عجلة»؛ لكنني رغم ما قلته إلا إنني شعرت أن قلبي يتسارع حين سمعت أن الطبيب كان غير موجود.

كان جدّي يشخر، أعتقد أنه نائم، كان فمه مفتوحاً على آخره. يا له من شخص هزيل، بعينيه النصف مفتوحة.

بجانب وسادته وعلى ضوء مصباح الزيت الخافت، جلست المرأتان، جلستا في صمت وأراحتا خديهما على يديهما.

«حسناً، أيها الصبي، ماذا عسانا نفعل؟ تزداد حالة جدك سوءاً، ولا تزال شكواه مستمرة.»

«لقد كنت أتساءل في نفسي قبل أن تسألوا». شعرت أنني على وشك البكاء بعد ردي هذا.

كان المخطط الأصلي مكوناً من صفحة ونصف وثلاثة أسطر؛ لكن عندما نسختها أصبحت أربع صفحات وأربعة أسطر. إن الشيء الوحيد الذي أشعر باليقين تجاهه في هذا المخطوط أنه يأتي بعد الجزء الذي نشرته عندما كنت في السابعة والعشرين. انتهت «يومياتي في عمر السادسة عشرة»، بسجل عن اليوم السادس عشر، أي في اليوم الذي ذهبت فيه «أوميو» للقيام بأمر ما، وجاءت المرأة العجوز «أوتسون» بدلاً منها، إلا أن الجزء الذي أرفقته هنا كان مما جاء بعد غيابها، أي عندما عادت «أوميو» إلى منزلنا مجدداً.

وبالتالي فإن العبارة المكتوبة في الكلمة الختامية لمخطوطة

«يومياتي في عمر السادسة عشرة»، والقائلة «هذه نهاية اليوميات» ليست دقيقة؛ وذلك لأنني وجدت فقط الجزء الواصل والمُكمل حتى اليوم السادس عشر من أيار، أي عندما نشرت «يومياتي في عمر السادسة عشرة». وأغلب الظن أن هناك المزيد من الكتابات الإضافية بين اليوم السادس عشر والجزء الذي أضفته هنا، وعلى الأرجح أنني أضعتها.

توفي جدّي في الرابع والعشرين من أيار؛ لذلك فقد كان اليوم السادس عشر قبل وفاته بثمانية أيام؛ وبالتالي فما كتبته هنا كان قبل وفاة جدي بأيام قليلة.

لقد جعلت مني وفاة جدي وأنا فقط في السادسة عشرة من عمري وحيداً دون أقرباء مقربين ودون أي منزل.

لقد كتبت في الكلمة الختامية: « كان الأمر الأشد غرابة بالنسبة لي، هو أنني عندما وجدت هذه اليوميات في مخزن عمي، لم تكن لدي أي ذكريات في داخلي عن هذه الحياة اليومية التي وصفتها في اليوميات. فأين ذهبت تلك الأيام إذا لم أكن أتذكرها؟ وإلى أين اختفت؟ لذلك فكرت وتأملت حينها في الذكريات التي قد يخسرها الإنسان من ماضيه...». وفي عمر الخمسين، ما زلت أجد حقيقة أنني عشت في الماضي شيئاً ما واختبرته ولكني لا أتذكره الآن، أمراً بالغ الغموض، وبالنسبة لي، هذه هي المعضلة الرئيسة

في «يومياتي في عمر السادسة عشرة».

فلا يمكنني ببساطة تخيل أن «يختفي» شيء ما أو «يضيع» في الماضي فقط لأنني لا أذكره، لم أقصد بهذا العمل أن أحلّ لغز النسيان والذاكرة، كما لم أقصد به أن يجيب عن أسئلة الزمان والحياة؛ لكنه حتماً يقدّم إشارة، ودليلاً لشيءٍ ما.

إن ذاكرتي سيئة للغاية لدرجة أنني لا أملك إيماناً راسخاً بها، ويحدث أن تمرّ عليّ أوقات أشعر فيها أن النسيان المزمن نعمة بحق.

المسألة الثانية هي سبب كتابتي ليوميات كهذه؟ والجواب هو أنه حين استشعرت ورأيت أن جدّي يقترب من الموت، أردت بشدة وعزم أن أصفه ما دام باستطاعتي فعل ذلك وكتابته، وعندما أتذكر نفسي وأستعيدها في عمر السادسة عشرة جالساً بجوار جدّي الذي يحتضر وأكتب بجدية في يومياتي تلك، كما لو كنت أرسم صورة من الطبيعة، أجد ذلك غريباً جدّاً.

يقول الجزء الذي كتبته في الثامن من أيار: «حسناً، أجلس أنا الآن أمام طاولتي مع أوراق الكتابة المنتشرة حولي، بينما جلست «أوميو» واستعدت بدورها للاستماع لهذا الحديث «الحميم» على حدّ وصف جدي. (كنت أفكّر حينها بكتابة الكلمات التي سيقولها جدي تباعاً بينما أسمعه). «أقول هنا «طاولتي»، إلا أن ما أذكره الآن

بضبابية كان أقرب إلى الآتي: «وهو إنني وضعت شمعة على حافة سنّادة القدمين التي كنت أستخدمها كطاولة كتبت عليها «يومياتي في عمر السادسة عشرة»، في الوقت الذي كان فيه جدي أعمى تقريباً، ولا يستطيع ملاحظة أنني -ذلك الصبي- كنت أكتب عنه.

وبالطبع لم أكن لأتخيل أبداً، أنه وبعد عشرة أعوام سوف أنشر هذه اليوميات كعمل أدبي، ومع ذلك، يعود الفضل في تمكن القارئ من قراءتها كعمل أدبي إلى مقتطفاتي اللفظية الواصفة بين سطور اليوميات، فلم أكن حينها نابغة أدبية شابة، فمن أجل أن أصف جدي بنقل كلامه، أخذت أخربش ما هو أشبه بسطور مختزلة دون أن أحظى بوقت كافٍ آنذاك لزخرفتها أو تجميلها، كما انه كانت هناك مقاطع كتبتها ولم أتمكن من فهمها وحل شفرتها حتى عندما كبرت.

توفي جدّي بعمر الخامسة والسبعين.

القصص

الزيت

توفي والدي وأنا بعمر الثالثة، وتوفيت والدتي في العام الذي تلا وفاته؛ ولهذا فأنا لا أتذكر أي ذكرى عن والديّ. بالنسبة لوالدتي فلم أجد لها حتى صورة واحدة، وأما عن أبي فقد كان رجلاً وسيماً، ولا بد أنه كان يستمتع بالتقاط الصور له، لقد وجدت قرابة الثلاثين أو الأربعين صورة لوالدي في مراحل مختلفة من عمره في غرفة التخزين عندما بعنا منزل العائلة القديم، احتفظت بأكثر تلك الصور جمالاً على مكتبي في أثناء مكوثي في سكن الطلاب خلال المدرسة المتوسطة؛ ولكن الأمر انتهى بي بأن أضعت كل ما تبقى من صوره نتيجة تغييري لمقر إقامتي باستمرار. لم تكن تبعث رؤية صور والدي أي ذكريات في داخلي؛ ولذلك، ورغم أنني كنت أتخيل بطبيعة الأمر أن تلك الصور كانت لوالدي، إلا أنها لم تكن مصحوبةً بأي شعور في أثناء رؤيتها.

يحدث مراراً أن يخبرني الجميع قصصاً عن والديّ؛ ولكن بينما كنت أستمع لهم ادركتُ انه لم يكن لدي ذلك الفضول لأن أستمع لأحاديث تُحكى وتُقال عن أحد مألوف؛ بل عن أحد لا أعرفه؛ ولذلك، فسرعان ما كنت أنسى ما قيل من القصص عنهما.

في يوم رأس السنة وبينما كنت على وشك عبور جسر «سوري» في طريقي لتقديم التحية على ضريح «سوميوشي» في أوساكا، أحسست بشعور غريب، لقد شعرت أنني قطعت ذاك الجسر عندما كنت طفلاً، فقلت حينها لابنة عمي التي كانت معي:

«أتساءل فيما إذا عبرت هذا الجسر من قبل عندما كنت طفلاً صغيراً، أشعر بطريقة ما كما لو أنني قد فعلت ذلك».

فردت عليّ: «قد تكون فعلت، فعندما كان والدك حيّاً كنت تقطن في أحياء قريبة من الجسر، مثل حي «ساكاي» و«هاماديرا»، ومن المؤكد أنه قد أحضرك إلى هنا».

- «لا، يبدو لي أنني قطعته وحيداً».

- «سيكون هذا مستحيلاً، كيف لطفل في الثالثة أو الرابعة من عمره أن يعبر هذا الجسر وحيداً، لن يستطيع، إنه خطر جداً، على الأرجح أن والدك من كان يحملك أو قد تكون والدتك».

- «ربما، لكن يبدو لي أنني عبرته وحيداً.»

- «لقد كنتَ طفلاً عندما توفي والدك، طفلاً متحمساً لصخب الزوار في الجنازة وضوضائهم، إلا أنك كرهت ضربهم للمسامير في النعش، لم تكن تريد السماح لهم بأن يدخلوا المسامير في نعش أبيك، ولم يكن أحد حينها يعرف كيف يتعامل معك».

عندما أتيت إلى طوكيو لدخول المدرسة الثانوية، ذُهلت عمتي التي لم ترَني منذ أكثر من عشر سنوات من منظر رؤيتي بالغاً.

«يكبر الأطفال حتى دون وجود أهلهم، لكم سيكون والداك سعيدين لو أنهما على قيد الحياة، عندما توفي والدك ومن ثم مرةً أخرى والدتك كنت تتصرف بشكل غير معقول ولا منطقي، ولم أكن أعرف ما أفعل معك، كنت تكره صوت الجرس الذي كان يُقرع أمام المذبح البوذي، كنت تبكي وتحتجّ كثيراً أيضاً عند سماعك للصوت فقررنا التوقف عن قرعه. علاوة على ذلك، طلبت مني أن أطفئ المصابيح في المذبح، ولم تكتفِ بطلب ذلك مني، بل قمتَ بكسر الشموع بنفسك، وسكب الزيت من وعاء المذبح الطيني إلى أرض الحديقة، لقد كنت ترفض السيطرة على مزاجك وغضبك، وفي جنازة والدك شعرت والدتك بالغضب الشديد وأخذت بالبكاء».

لا أذكر أيّاً من هذا كله، ولا أذكر أنني كنت فرحاً لكثرة الضيوف في جنازة أبي، ولا أنني حاولت منعهم من ضرب المسامير في نعشه كما أخبرتني ابنة عمي، إلا أنني، وحسب ما قالته عمتي، شعرت بذلك النوع من الحميميّة التي يشعر بها المرء عندما يزوره صديق طفولة قد ضاع منذ زمن بعيد. تخيلت في ذهني وجهي الطفولي الصغير الباكي وأنا أحمل الوعاء الطيني ويداي ملوثتان بالزيت،

وفي اللحظة التي سمعت بها من عمتي بهذه القصة، استطعت أيضاً تخيّل الشجرة العتيقة في حديقة منزلنا القديم، فحتى عمر السادسة عشرة أو السابعة عشرة كنت أتسلق على هذه الشجرة كل يوم، وأجلس على جذعها العلوي كالقرد مستمتعاً بقراءة الكتب.

كانت البقعة التي سكبتُ الزيت عليها بالقرب من حوض الغسيل في الحديقة، وبجانب ردهة الشرفة التي كانت مقابل تلك الشجرة، نعم أستطيع تذكر تلك التفاصيل؛ ولكن عندما أفكر في الأمر أذكر أن والدي ووالدتي قد توفيا في المنزل المجاور لضفاف نهر «يودو» قرب أوساكا، ما ينطبع في مخيلتي الآن هو شرفة ذلك المنزل في تلك القرية الجبلية الواقعة على بعد عشرة أو اثني عشر ميلاً شمالاً، أذكر أننا هدمنا المنزل المجاور لنهر «يودو» بعد وفاة أبي وأمي بوقت قصير، وانتقلنا إلى منزل العائلة القديم، لا أتذكر أي شيء عن المنزل المجاور للنهر؛ لذلك توقعت أن يكون المنزل الذي سكبت فيه الزيت هو منزل البلدة الجبلية، فلا يمكن للمكان على الأرجح أن يكون قرب حوض حجري، إضافةً إلى سهولة تخيلي فيه أمي أو جدتي حاملة ذاك الوعاء الطيني.

ما زلت أيضاً أذكر كلا الحدثين، وفاة أمي ووفاة أبي، وكأنهما حدثٌ واحد أو كحدث واحد تكرر مرتين. نسيت عمتي أيضاً بعض التفاصيل، ولعل ما أظنه ذكريات ليست سوى أحلام يقظة،

إلا أن عاطفتي ما زالت تتوق لهذه الذكريات وتودّ لو أنها الحقيقة حتى لو كانت مشبوهة أو مشوهة، لقد نسيتُ أنها كانت مجرد قصص سمعتها من أحد ما، ووصل بي الأمر حد أنني كونت علاقة حميمية معها كما لو كانت قصصاً تخرج من ذاكرتي أنا أولاً.

خلّفت قصة عمتي تأثيراً غريباً عليّ، لقد كانت أشبه بقصة تعج بالحياة من تلقاء نفسها.

فبعد ثلاث أو أربع سنوات من وفاة والديّ، أي عندما ماتت جدتي، ومرةً أخرى بعد ثلاث أو أربع سنوات من ذلك، أي عندما ماتت شقيقتي الكبرى، ومرات أخرى عديدة -حيث كان يأمرني جدي بالصلاة أمام مذبح العائلة البوذي- كانت لدى جدي فيها عادة نقل الضوء دائماً من مصباح الزيت إلى الشموع. وإلى أن سمعت قصة عمتي لم أشك أبداً في سبب قيام جدي بذلك. لقد ظلت القصة ببساطة كذكرى، فلم يكن قيام جدي بذلك بسبب أن لديّ كراهية متأصلة لأضواء الزيت أو لصوت الجرس، فلم أكن غالباً مكترثاً في جنازات جدتي وأختي بشأن الضوء المنبعث من مصباح الزيت، لقد نسيت أنني بغضب جعلت أحدهم يسكب الزيت في جنازات والديّ.

لكن جدي لم يكن يجعلني أصلي أمام ضوء مصباح زيت في تلك المرات. وعندما سمعت قصة عمتي، أدركت لأول مرة حزن

جدي الذي كان موجوداً في القصة. قد يبدو هذا مضحكاً، فحسب ما قالته عمتي وعلى الرغم من أنني كسرت الشموع وصببت الزيت في جنازات والديّ؛ إلا أن جدي نقل الضوء إلى الشموع. أذكر بشكل بعيد وضبابي كيف سكبت الزيت؛ لكنني لا أستطيع تذكر كسر الشموع على الإطلاق؛ فأظن أن الجزء المتعلق بالشموع هو من عمل ذاكرة عمتي المضطربة أو مبالغتها في سرد القصة، ففي حقيقة الأمر أن جدي لم يكن ليسمح لي أبدًا برؤية مصباح الزيت في مذبح العائلة، إلا أن كلينا وحتى دخولي للمدرسة المتوسطة عشنا على مصابيح الزيت، كان جدي مصاباً بعمى نصفي، ولم يكن يشكل لديه أي فرق، سواء كان المحيط حوله مظلماً أم مضاءً، فكنا نستخدم المصابيح القديمة بدلاً من مصابيح الكيروسين.

بالإضافة إلى ضعف البنية الذي ورثته عن والدي؛ فقد ولدت قبل شهر من موعد ولادتي، وبدوت حينها ضعيفاً وبأمل ضئيل بالنمو، لم أكن آكل الرز حتى دخولي للمدرسة الابتدائية، لقد كرهت العديد من الأطعمة؛ ولكن أكثر ما كرهته من طعام كان زيت بذور اللفت، فكنت أتقيأ فور محاولتي وضع أي شيء في فمي يحمل رائحة هذا الزيت، وعندما كنت صغيراً كنت مولعاً بالبيض المقلي ولفائف العجة، لكن لو راودني مجرد الشك في أن المقلاة قد دهنت به أشعر بالنفور حتى لو لم أتيقن من ذلك، كنت آكل البيض بعد أن تنزع جدتي أو الخادمة الطبقة التي لامست

المقلاة، فكان عليهم تكرار هذه العملية المُتعبة يومياً بسبب شهيتي الضعيفة. في إحدى المرات سقطت نقطة من زيت المصباح على زي «الكيمونو» الذي أرتديه، فلم يتمكن أحد من إقناعي بارتدائه مجدداً، لم أستطع حتى لمسه إلى أن اقتطعوا المنطقة الملوثة ورقعوها بقطعة أخرى نظيفة، فلمسته مشمئزاً حينها بصعوبة.

وإلى اليوم ما زلت حساساً بتطرف تجاه رائحة الزيت تلك؛ إذ كنت مؤمناً ببساطة أنني أكره هذه الرائحة، لكن عندما سمعت توضيح عمتي أدركت للمرة الأولى أن حزني أيضاً كان مضمناً في القصة. فبالنسبة لشخص مثلي كره زيت المصباح في المذبح، سيكون شعور موت والديّ تماماً كشعور اختراق رائحة الزيت لقلبي وتخلله فيه، وبفضل قصة عمتي استطعت تخيل مشاعر جدي وجدتي اللذين غفرا لي حينها كراهيتي العنيدة للزيت.

بعد أن أدركت هذا إثر استماعي لقصة عمتي، بزغ لي طيف حلم من أعماق ذاكرتي، رأيت في ذاك الحلم العديد من مصابيح الطين التي كانت تشتعل معلقةً على طول خط في منتصف الهواء كمثات المصابيح التي كنت رأيتها في مهرجان مزار الجبل عندما كنت صغيراً، وقد حدث في الحلم أن قام معلم مبارزة وغد بأخذي نحو المصابيح، ثم قال:

«إذا تمكنت من كسر هذه الأوعية الطينية في المنتصف تماماً

باستخدام سيف من البامبو، فستثبت أن ذراعك متمرسة بما يكفي، وحينها سأمنحك أسرار المبارزة».

ولأنني لم أملك إلا سيفاً ثخيناً من البامبو -في الحلم- لأوقع هذه الأوعية غير المضيئة، تحولت المصابيح إلى رماد بدلاً من أن تنقسم إلى شطرين بشكل سويّ، لقد حطمتها كلها دون النظر جانباً، وحين أدركت ما حدث، كانت الأضواء كلها مطفأة دون استثناء، وكل ما حولي غدا ظلاماً، وبمعنى آخر، كم بدا مدرب المبارزة هذا نذلاً، فهربت في حلمي إلى أن استيقظت من نومي.

كنت قد رأيت في منامي حلماً كهذا عدة مراتٍ فيما مضى، وعندما أتذكر هذه الأحلام متصلة مع قصة عمتي، أدرك حجم الألم الكامن في داخلي نتيجة فقداني لوالديّ في صغري، وأدرك أن هذا الحلم ليس إلا تعبيراً عمّا في داخلي ومحاولة مني لمقاومة ذاك الألم.

في اللحظة التي استمعت فيها إلى قصة عمّتي، شعرت أن الحوادث المنفصلة كلها، والتي كنت قد خزنتها في ذاكرتي قد اجتمعت في بقعة واحدة، حوادث كانت تصافح إحداها الأخرى وتتحادث فيما بينها عن خلفياتها المشتركة ونقاط التقائها. أحسستُ وقتها بأن قلبي غدا خفيفاً، وتملكتني رغبة حثيثة بأن أعيد التفكير بجدية في آثار فقدي لوالديّ عندما كنت طفلاً.

عندما أصبحت شاباً، بكيت بأسى على «حزن يُتمي» بدموع حلوة، تماماً مثلما وضعت صوراً لوالدي على سطح مكتبي، واستجديت الشفقة من أصدقائي، ذكوراً وإناثاً.

لكن سرعان ما جعلتني أفكاري أدرك أنني لم أفهم شيئاً بعد عن «حزن اليتيم»، وأنني لن أحظى ما حييت بطريقة تمكنني من فهم ذلك أبداً. إن حزن اليتيم الحقيقي يرتكز على شيئين أساسيين: أولهما كانت الحياة ستكون الشيء ذاته لو أن والديه ظلا على قيد الحياة، وثانيهما أن الأمور سارت بهذا الشكل لأنهما ماتا فحسب. لكن وبما أنهما ليسا على قيد الحياة حقّاً، فإن الله وحده هو الذي يعلم كيف كانت الحياة ستكون لو ظلا على قيد الحياة، فلا أظن أن انعدام الحزن حينها سيكون مؤكداً بالضرورة؛ ولذلك فإن الدموع التي ذرفتها على موت أبوين لم أكن أعرف حتى وجهيهما جاءت نتيجة لعبة عاطفية طفولية محضة.

من المؤكد أن موتهما ترك في روحي جُرحاً غائراً بلا شك، لكن هذا الجرح لن يكون واضحاً بالنسبة لي إلا حين أتقدم في العمر وأنظر إلى سيرورة حياتي في الماضي، فكرت أنه وحتى في ذاك الوقت المستقبلي سوف أشعر بالأسى وفقاً لتقليد عاطفي لا أكثر، أو اعتماداً على ما قرأته وخبرته في الأدب من مشاعر.

اعترف أن قلبي كان قويّاً ومتحفزاً، ولكن بعد أن أصبحت حياتي تبدو أكثر استرخاءً وحرية في سكن المدرسة الثانوية، أدركت أخيراً أن إصراري على ما أريد الشعور به هو ما شوهني. حاولت مشاعري الشخصية أن تتأقلم وتنغمس مع جروحي وضعفي، لدرجة أنني كنت أشعر معها بالأسى بخنوع لمّا توجب عليّ الشعور بالأسى والحزن تجاهه، ومن خلال ذاك الخنوع الوديع، منعت نفسي من الشفاء من الأسى والحزن وتجاوزهما.

كانت حياتي منذ وقت طويل فيما مضى ومن حين لآخر تتحول إلى جحيم قاتم بمجرد إدراكي للمشاعر والأفعال التي توجب عليّ الشعور بالعار بسببها، العار الذي كان نتيجة واضحة لعدم تلقي الحب من الأهل منذ طفولتي، فكلما حدث ذلك، اعتدت أن أشفق على نفسي بصمت.

يحدث عندما أرى عائلات سعيدة في المسرح أو الحديقة العامة أو الأماكن الأخرى، أو عند رؤيتي لمجموعة أطفال يلعبون معاً، أن أجد نفسي مذهولةً، وحين أكتشف هذا الشعور في نفسي كنت أتأثر، وحين أكتشف أني تأثرت، كنت أوبخ نفسي على حمقي، وأفكر الآن كم كنت مخطئاً حينها.

أدركتُ أنه لا ينبغي لي أن أكترث كثيراً لوفاة والدي، تماماً كعدم اكتراثي بإضاعة صور والدي الثلاثين أو الأربعين، ولا ينبغي أن

أقف كثيراً عند روح اليتيم في داخلي، «فلديّ روح جميلة تخصني بالفعل».

كانت هذه هي طبيعة المشاعر في داخلي عندما تقدمت نحو الحياة الإنسانية المضيئة والواسعة بعمر العشرين، لقد أحسست أنني أقترب من شعور السعادة بحق؛ فكان أدنى قدر من الحظ الجيد يغمرني بالسرور.

ولكني كنت أسأل: «هل هذا بالفعل كلّ ما أحتاج إليه؟».

«بما أنني لم أمضِ طفولتي كما ينبغي لكل طفل أن يفعل، فلا مانع الآن من الشعور بالبهجة كالأطفال».

هكذا أجبت عن سؤالي الشخصي ودفعت نفسي لأرى ذاتي بطريقة جديدة، معتقداً أن بقدوم هذه الفرحة الوحيدة ستُمسح عقدة اليتم لديّ. كنت توّاقاً لرؤية حياتي الجديدة في ذاك الوقت، تماماً كشخص هرب من مكوث طويل في المشفى، ثم رأى فجأةً متعة اخضرار الحقول للمرة الأولى.

انبعثت الحياة من القصة التي سردتها عليّ عمتي وسكنت بداخلي، وسببت تحولاً شاسعاً أثرّ في مشاعري بعمق، لقد كنت مكبلاً بالأحاسيس التي خبأتها من بعض الآلام التي شعرت بها بسبب وفاة والديّ. فكرت طويلاً بتفصيل شخصي انهكني حتى

حسمت أمري بعدها وقررت أن أجرب تناول طعام ذات رائحة زيت بذور اللفت، فاستطعت أكله رغم استغرابي، حدث بعد ذلك أن ابتعت أيضاً بعضاً من هذا الزيت، ووضعت بعضاً منه على طرف إصبعي وتذوقته، كان أنفي حساساً للرائحة؛ ولكن ذلك لم يكن كافيا ليزعجني أو يزعزع من ثبات رغبتي.

صرخت قائلًا: «ها أنا ذا! لقد فعلتها».

هنالك العديد من الطرق التي تفسر هذا التحول في شخصيتي، قد تقول لي إن هذا ليس بالأمر المهم على الإطلاق، لقد انتصرت قوتي التي ازدادت فرحاً بنجاتي، وعلى الرغم من أن كراهيتي المتأصلة للزيت لم تكن لها علاقة بوفاة والديّ، لكني أود أن أقول، ورغم عدم منطقية ذلك، إنه وعلى الرغم من نسياني لعلاقة السبب والنتيجة بين حزني على موت والديّ الذي سكن في مصابيح المذبح البوذي، وكراهيتي للزيت في تلك المصابيح، وسكبي للزيت في الحديقة، أود أن أقول إنّ كراهيتي للزيت كانت بسبب الصلة التي ارتبطت صدفةً بين السبب والنتيجة في تنوع القصص واختلافها التي سمعتها حول والديّ.

«لقد أُنقِذت من الزيت فحسب».

كم أود أن أصدق هذا كدليل على أنني بالفعل قد شفيت من أحد جروحي.

أظن أيضاً أنه لا توجد طريقة لجعل أثر فقدان أقرب أقربائي عندما كنت طفلاً يختفي إلا بأن أصبح زوجاً لامرأة ما أو أب لأحد ما، أي أن أصبح محاطاً بصلات دم من جديد؛ لكنني مازلت آمل، تماماً كما حدث لي مع قصة الزيت، أن تستمر المصادفات بحمايتي لمرة ثانية وثالثة من الجوانب المشوهة لقلبي.

تتحرك الرغبة في داخلي الآن أكثر فأكثر لأن أتمتع بصحة جيدة، وأعيش عمراً مديداً، عمراً ابني فيه روحي الجديدة، وأحقق هدف حياتي بها.

ابتسمت وأنا أشعر بالحماسة الحديثة تجاه الزيت، وفكرت بأن عليّ أكل زيت كبد سمك القد من أجل صحتي، بما أنني أصبحت قادراً على ابتلاع تلك المادة الزيتية ذات الرائحة الفواحة كل يوم. إضافة لذلك، شعرت أنني بذلك أضيف احتراماً لوالديّ المتوفيين كلما أدخلت الزيت لجسمي.

مضت عشرة أعوام تقريباً منذ أن توفي جدي أيضاً ولحق بركب بقية الأموات في حياتي.

«يبدو الضوء أكثر إشراقاً الآن، أليس كذلك؟».

وبهذه المناسبة، أود أن أضع مائة مصباح زيتي على المذبح من أجل والديّ.

تموز 1927

جمع الرماد

كانت هناك بحيرتان في الوادي.

لمعت البحيرة السفلى وكأنها محفوفة بالفضة المصهورة، بينما كانت البحيرة العلوية عميقة، قاتمة وصامتة كالموت، وأمّا ظلال الجبل حول البحيرتين فبدت وكأنها مغمورة في تلك المياه الخضراء.

كان وجهي دبقاً بلزوجة، لويت عنقي ونظرت ورائي للدرب الذي عبرته، فوجدت أن الدم قد تساقط على أعشاب البامبو، بدت قطرات الدم تلك وكأنها تتحرك.

عاد أنفي للنزيف مجدداً، نابضاً بالدم وسط موجات داخلية دافئة.

ضغطت بوشاحي على أنفي بسرعة واستلقيت على ظهري، ناظراً بعلو نحو السماء.

أذهلتني أطراف الأوراق السفلية للأشجار التي أشرقت عليها الشمس من الأعلى.

بدأ الدم في التوقف من منتصف الطريق داخل أنفي وبدأ بالتراجع لرأسي تدريجياً، مخلفاً شعوراً سيئاً، دغدغني وأصابني

داخل أنفي بحكّة كلما تنفست.

وفجأةً ارتفعت حشرات زيز الحصاد صائحةً عبر التلة، وكأن شيئاً ما أرعبها.

في الصباح المتأخر في تموز يمكن لصوت سقوط إبرة واهنة أن تتسبب في إحداث انحلال وتفكك تام في الهواء، فشعرت أنني غير قادر على تحريك جسمي. وفي أثناء مكوثي هناك متعرقاً، وأصوات حشرات الزيز تصدح من حولي، واللون الأخضر يملأ المكان حولي ممتزجاً مع دفء الأرض، حدث أن تلاقت دقات قلبي جميعها واتحدت في نقطة واحدة من رأسي، بعد ذلك، تفرقت الدقات وتبددت، بمجرد أن شعرت بتوحدها.

أحسستُ حينها كما لو انني سأُسحب إلى السماء.

«انزل إلى هنا».

وقفت على قدمي بعد أن سمعت صوتاً ينادي من جهة المحرقة، كان ذلك في الصباح الذي تلا مراسم جنازة جدي، وكنا قد أتينا لنجمع الرماد، وبينما كان الجميع يعبثون بالرماد الذي كان لا يزال ساخناً من عملية الحرق، بدأ أنفي بالنزيف، فأمسكت به بطرف وشاحي وفررت من المحرقة، وصعدت نحو التلّة لتفادي الانتباه لي.

عدت راكضاً للأسفل عندما سمعت أحدهم يناديني، ولاحظت

التماع البركة التي أضاءت كالفضة ومن ثم اختفت، وأكملت تزحلقي على أوراق العام الفائت اليابسة والميتة.

«لقد أخذت وقتك بالتأكيد، أين كنت؟ أصبح جدك بوذيّاً الآن. انظر له». هذا ما قالته عمتي الكبرى وهي تخرج من المحرقة.

«حقًا؟ أين؟»، سألتها وتحركت باحثاً بين أغصان البامبو، كنت قلقاً على لون جسدي من الحرارة وعلى وشاحي المبلل بالدم بعد نزيف أنفي الغزير، إلا أنني اقتربت من عمتي.

لفتت جمرة صغيرة انتباه الجميع، جمرة كانت بحجم إنش مبسوطةً على قماش أبيض في راحة المرأة العجوز، التي بدت كقطعة متجعدة من الورق البني اللون.

علمت أن تلك الجمرة كانت تفاحة آدم حلق جدي، وحاولت ببعض الجهد الذهني أن أتخيلها بشكلها البشري القديم.

«لقد وجدناها للتو، حسناً، هذا ما انتهى إليه جدك الآن، تعال وضع هذه الجمرة في الجرة المخصصة لها».

كم هذا سخيف! كان من المفترض أن يكون جدي منتظراً سماعي من بوابة منزلنا متجهاً نحوه، وأن تمتلئ عينيه العمياء بالسعادة على إثر صوتي، كم هو غريب أن أجد هذه المرأة تقف هنا- امرأة لم أرها من قبل وتدّعي الآن أنها عمتي الكبرى.

ألقيت نظرة فرأيت عظام قدميّ جدي ويديه ورقبته مرمية بعشوائية داخل الجرة المخصصة.

كان ما يسمى بالمحرقة مكاناً بالغ الصغر ولا يحتوي على جدرانٍ حوله؛ بل عبارة عن حفرة ضيقة وطويلة تكفي لحرق الجثة الميتة.

كانت الحرارة المنبعثة من الرماد مكثفة وقوية.

«حسناً، هيا بنا نذهب إلى القبر، الرائحة سيئة هنا، كما أن ضوء الشمس هنا باللون الأصفر المتسخ». تكلمت، قلقاً على رأسي المصاب بالدوار وعلى أنفي الراعف، الذي كان يُهدّد بالنزيف مجدداً.

عندما نظرت للخلف، كان الرجل المُسن من المحرقة يحمل الجرة تحت ذراعه، أما باقي الرماد وحصائر القش التي كان يجلس عليها زوار جنازة البارحة في أثناء مراسم حرق البخور، ظلت كما هي، بينما وقفت أغصان البامبو ملتصقةً بورقها الفضي.

وفي أعقاب ليل البارحة تحوّل جدي لروحاً من اللهب الأزرق، طار من خلال سقف الضريح، وارتفع محلقاً فوق غرف مشفى الحجر الصحي المجاور، مخلفاً وراءه رائحة كريهة، وهو ينطلق بعيداً ومرفرفاً نحو سماء الوادي. تذكرت هذه القصة وأنا أسير نحو القبر.

كانت المحرقة تقع على زاوية مقبرة البلدة، إلا أن مقبرة العائلة كانت في مكان منفصل.

وصلنا إلى مقبرة العائلة حيث برزت النصب الحجرية.

لم أهتم بالمقبرة، أردت فقط أن أتشقلب على الأرض وأن أستنشق هواء السماء الزرقاء حولي.

أعدّت عمتي العجوز إبريقاً نحاسيّاً كبيراً من الماء كانت قد أحضرته من الوادي.

«وفقاً لوصيته وشهادته الأخيرة، أراد أن يُدفن تحت حجر جدّه الأقدم». نطقت عمتي كلمات «وصيته وشهادته الأخيرة» بكامل الأسى.

اندفع ابنا المرأة العجوز وعبرا بين الناس، وقاما برفع حجر القبر القديم ووضعاه على أرفع بقعة، ثم حفرا حفرة تحته.

بدت الحفرة عميقة؛ إذ أصدرت الجرة صدىً واضحاً عند ارتطامها بالقعر المظلم دلالة على قطعها لمسافة بعيدة.

بعد الموت سيضعون جمراتك بعد حرقك في قبر أسلافك، فعندما تموت، لن يتبقى منك شيء، فأنت مجرد حياة وستُنسى سريعاً.

أُعيد النصب التذكاري إلى مكانه مجدداً.

«حسناً يا صبي، إنه الوداع».

نثرت المرأة العجوز الماء على النصب التذكاري الصغير، فاشتعل البخور دُخاناً؛ لكنه لم يترك ظلّاً بسبب كثافة ضوء الشمس المنبثق من كل مكان.

كانت الأزهار ذابلة.

صلى الجميع، ضموا أكفهم معاً، وأغلقوا عيونهم.

أنعمت النظر في وجوههم الصفراء، وأحسست بالضعف مجدداً.

حياة جدّي ـــــ والموت.

بلا مبالاة حرّكت ذراع يدي اليمنى للأمام والخلف وكأنها متصلة بزنبرك.

أصدرت عظام جدي صوت اصطكاك، كنت أحمل الجرة الأصغر حجماً.

«لقد كان رجلاً سيئ الحظ»؛ «ولكنه رجل حاول وفعل كل ما بوسعه لأجل عائلته»، «رجل لن تنساه بلدته». كان هذا الحديث عن جدي في طريق العودة، تمنيت لو أنهم يتوقفون عن الحديث عنه، فأنا الوحيد بينهم الذي يشعر بالحزن والأسى.

تساءل الناس الذين كانوا يسكنون خلف منزلنا عن مصيري

القادم بعد أن تُركت وحيداً، تساؤلًا أحسستُ معه بفضولهم المختلط مع شعورهم بالشفقة.

وقعت خوخة على الأرض، وتدحرجت نحو قدمي، كنّا قد مررنا بمحاذاة جبل الخوخ في طريقنا من المنزل للقبر.

يعود هذا الحدث لعامي السادس عشر، والذي كتبت عنه عندما كنت في الثامنة عشرة (1916)، أعدتُ الآن نسخه، وعدّلت على كلماته قليلاً.

يثير اهتمامي الآن أن أعود وأنا في عمر الواحد والخمسين لأعيد مجدداً قراءة ما كتبته وأنا في الثامنة عشرة من عمري؛ وذلك لأفكر فقط بأنني ما زلت على قيد الحياة.

توفي جدي في الرابع والعشرين من أيار، إلا أن هذه القصة «جمع الرماد» وقعت في تموز، ويتضح لي الآن كم أنها احتوت على بعض الخيال.

نشر «شينشوشا» هذه القصة في مجلة «بونشو نيكي»؛ إلا أن صفحة واحدة كبيرة منها كانت قد تمزقت وضاعت، وكانت الأسطر التي تمتد في هذه القصة بين عبارة «كانت الحرارة المنبعثة من الرماد مكثفة وقوية» و«حسنًا، هيا بنا نذهب إلى القبر» عبارة عن صفحتين غير أنهما فُقدتا ولم تُضّمنا في اليوميات. ومع ذلك فقد نشرتها دون تلك الصفحتين.

فقبل أن آتي إلى قصة «جمع الرماد»، وجدت قطعة معنونة: «إلى قريتي الأم»، وفيها وجهت كلامي إلى قريتي بطريقة المخاطب «أنت»، وهي القرية التي عشت فيها مع جدّي. كانت تلك القطعة على شكل رسالة مكتوبة من أيام إقامتي في سكن المدرسة المتوسطة، وكانت نابعة حينها من عاطفية شبابي آنذاك.

سوف أوضح هنا الصلة بين هاتين القصتين: «جمع الرماد» و«إلى قريتي الأم» بهذه العبارات:

«... على الرغم من أنني تعهدت بعكس ذلك، إلا أنني في ذلك اليوم في منزل عمي وافقت على بيع المنزل الذي عشت فيه مع جدي».

قد بيعا لذاك المشتري». ولعلك رأيت منذ بضعة أيام أن الصندوق والخِزانة في غرفة التخزين»

«بعدَ أن تركتك، سمعت أن منزلي أصبح مأوى للمتشردين المساكين، وبما أن زوجة الرجل المجنون في الجوار قد ماتت بمرض الروماتيزم، فقد استُخدم المنزل أيضاً كسجن له».

«ستُسرَق أشياء أخرى من غرفة التخزين في نهاية المطاف، وستُقتطع تلة المقبرة بالتدريج لتصبح جزءاً من جبل الخوخ. تقترب الذكرى السنوية الثالثة على وفاة جدي؛ لكن لا بد أن لوحه التذكاري في المذبح البوذي قد هوى إلى بول جرذ».

اليدان

1

كان صوت الأمواج مرتفعاً من بعيد، رفع الرجل ستائر النافذة، ولاحظ أن النيران على متن قوارب الصيد كانت واضحة بجلاء للعيان، ومع ذلك فقد بدت الآن أكثر بعداً من قبل؛ وربما كان ذلك بسبب الضباب الذي عمّ واستقر في أرجاء المحيط.

نظر الرجل للوراء إلى السرير، وأحس بقشعريرة تنبت من مساحة صدره، كانت الشراشف ناصعة البياض وممتدة دون أدني تغضّن على السرير. هل غاص جسد عروسته الجديدة بعمق تحت الملاءة الناعمة؟ فلم يكن هناك أي أثر لانتفاخ على السرير، سوى رأسها الساكن مرتفعاً على الوسادة.

وبينما بدأ الرجل في تأملها وهي نائمة، حدث أن ذرفت دموعه بصمت، دموعاً لم يكن يعرف لها سبب.

تراءت له شراشف السرير كطبقة من الورق الأبيض سقطت تحت ضوء القمر، وفجأة، شعر بشيء ينذر بالسوء حيال صوت النافذة المفتوحة، فأغلق النافذة وأسدل الستائر ومشى باتجاه السرير.

وضع كوعه على الزخارف في أحد أعمدة السرير، وأطل ناظراً إلى وجه زوجته، مرّر كفيه نزولاً حتى أسفل قدم السرير وجثا على ركبتيه ثم سجد ضاغطاً بجبهته على النصب الحديدي المدور، حتى اخترقت البرودة المعدنية رأسه.

ثم وبصمت ضمّ كفيه معاً بأسلوب شبيه بالورع والإخلاص البوذي.

- «توقف! كم هذا مريع! تتصرف وكأنني ميتة!».

نهض الرجل فجأة على قدميه وقد احمرت وجنتاه من الخجل.

- «هل كنتِ مستيقظة؟».

- «لم أنم ولو للحظة، كنت أحافظ على مواصلة حلمي فقط».

دفعت المرأة صدرها عالياً كالقوس، وفي اللحظة التي نظرت فيها نحوه، انتفخت الشراشف البيضاء بالدفء، فربّت على الشراشف.

- «الضباب يعمّ المحيط». قال لها.

- «لا بد أن قوارب الصيد قد غادرت الآن، أليس كذلك؟».

- «لا، ما زالت القوارب على الماء».

- «ألم تقل إنّ هناك ضباباً؟».

- «لا بأس بذلك، لم يكن ما قلته إلا سديماً رقيقاً، حسناً، لا يهم، ها أنتِ ذا، عمتِ مساءً».

وضع يده على الأغطية، واقترب بشفتيه نحو شفتيها.

- «توقف، عندما أكون مستيقظة تُقبّل شفتيّ، وعندما أكون نائمة تعاملني كالميتة».

***

كبر الصبي وأصبح ذا إرادة قوية وعناد كبير، وغالباً ما كان سلوكه غير منطقي مما دفع جدّه للبكاء، وحين كان يحدث شيء كهذا كان الجد يرسل في طلب كاهن من معبد الجبل، ولكن الصبي كان يهدأ دائماً بمجرد وصول الكاهن وكأن شيئاً لم يحدث، ولم يكن جدّه يجد تفسيراً لذلك.

مغلقاً عينيه، جلس الكاهن منتصباً، وقد ضمّ كفيه معاً أمام الصبي، شعر الصبي بالهدأة عندما رأى هذه الابتهالات حوله، وبعد مغادرة الكاهن، كان الصبي عادة ما يقف قبالة جده ويضمّ كفيه أيضاً بصمت، ولكن الجدّ لا يراه، لأن عينيه العمياء البيضاوين كانتا مفتوحتين على فراغ، ومع ذلك كان الصبي يشعر بأن قلبه غدا نظيفاً.

وهكذا، أصبح الصبي مؤمناً بقوة اليدين الملتصقتين كفّاً بكف، لقد اقترف هذا الطفل اليتيم العديد من الذنوب خلال نمو حياته،

كما أنه استغل العديد من الناس، ومع ذلك فقد كان هناك أمران لم تسمح له شخصيته وذاته بفعلهما، وهما: أن يعبر عن امتنانه أو أن يطلب المغفرة بشكل مباشر. فعندما كان الصبي يمكث في منزل أحدهم، لم يكن يستطيع الانتظار توقاً لتلك اللحظة قبل موعد النوم التي يضّم فيها كفيه معاً كما تعوّد أن يفعل كل ليلة في ابتهالاته، كان يؤمن أنه بهذه الطريقة قد تصل للآخرين مشاعره التي لم يفصح عنها.

2

كان ضمّ يديه معاً في خشوع عادته منذ شبابه.

عاش مع جده الأعمى في قرية جبلية، بعد أن فقد والديه في عمرٍ صغير، كما كان لجدّه عادته الدائمة وهي إحضار حفيده الصغير أمام مذبح العائلة، كان يقترب من يدي الصبي ويلمسهما ليضمهما معاً بين يديه من أجل الصلاة.

كيف كانت يا ترى يدا جدّه؟

3

في ظلال الأوراق الجديدة لشجرة «البولونيا» أزهرت براعم الرمّان كالمصابيح المشتعلة.

عادت الحمامة من بستان شجر الصنوبر إلى الإفريز خارج غرفة مكتبه.

الآن، وباقتراب نهاية الفصل الماطر، بدأت أشعة القمر أخيراً ترتجف في نسيم المساء.

من الظهر وحتى منتصف الليل ظل الرجل جالساً بثبات أمام النافذة، ضامّاً كفيه إلى بعضهما بعضاً. كانت زوجته قد تركت

ملاحظة موجزة وهربت إلى حبيبها القديم، فأخذ يصلّي أن تعود له.

استطاعت أذناه بالتدريج أن تميّز بين الأصوات المختلفة من حوله، استطاع أن يسمع صفارة المساعد في محطة القطار التي تبعد عنه نصف ميل، كما استطاع أن يسمع خُطى عدد ما لا يحصى من الأقدام وكأنها صوت مطر بعيد وخافت، ومن ثم استطاع بعيون مخيلته أن يرى زوجته.

خرج إلى الطريق الذي ظلّ يراقبه من نافذته لنصف يوم، فرأى زوجته تسير هناك.

- «مرحباً» حياها ناقراً على كتفها وهو يحاذيها.

فحدّقت به بنظرة دون معنى.

- «لقدت عُدتِ لي، لقد اعتقدت أنه بعودتك لي فقط، سيصبح حينها كل شيء على ما يرام».

وحينها سقطت زوجته مائلة نحوه، استندت عليه، وفركت عينيها الدامعة لصق كتفه.

تكلّم الرجل بهدوء وهما يمشيان:

- «كنتِ تجلسين على كرسي في المحطة منذ برهة، وتعضّين

مقبض مظلّتك الشمسية».

- «هل رأيتني؟». سألته وهي تلتفت نحو عينيه مندهشة.

- «نعم، بطريقة ما كان بإمكاني رؤيتك».

- «ولم تقل لي أي شيء عندما رأيتني؟».

- «لا، فقد رأيتك من النافذة».

- «حقًا؟».

- «رأيتك فخرجت للقائك».

- «هذا مرعب».

- «هل هذا كل ما تفكرين به؟ أن الأمر مرعب فحسب؟».

- «لا».

- «كانت الساعة عند الثامنة والنصف عندما بدأتِ بالتفكير في العودة لي، هل هذا صحيح؟».

- «هذا يكفي! أنا ميتة بالفعل. إنني أذكر، تلك الليلة التي جئتُ بها كزوجةٍ لك، لقد انحنيت وضممتَ يديك معاً تماماً كما يفعل المرء أمام شخص ميت، ومن ثم.. متُّ أنا حينها».

- «وبعدها؟».

- «لن أغادر مرة أخرى، سامحني».

أحس الرجل الآن، وبعد نجاحه في استعادة زوجته، برغبة في أن يختبر قوّته من جديد، وأن يلتزم بإخلاص بأسلوبه القديم، ويضمّ كفيه معاً أمام النساء.

صلاة باللغة الأم

1

كان يقرأ كتاباً عن علم اللغويات.

كانت هذه حقيقة نقلها الدكتور راش، وهو أميركي الجنسية.

كان هناك شخص إيطالي يدعى البروفيسور كانديلا، كان يدرّس اللغة الإيطالية والفرنسية والإنكليزية، ولقد مات هذ الرجل بالحمى الصفراء.

في اليوم الذي بدأت فيه الحمّى بالظهور كان يتحدّث باللغة الإنكليزية، وفي منتصف مرضه، أصبح يتكلم الفرنسية فقط، وأخيراً في ساعاته الأخيرة، أصبح يتكلم لغته الأم دون غيرها، أي الإيطالية. وبطبيعة الحال لم يكن تصرفه هذا وكأنه تحت تأثير هذيان الحمّى، كما لم يكن يملك في خِضَّم هذا التصرف أي حضور ذهني يسمح له بالتفاخر بلغوياته أيضاً.

حدث هذا أيضاً مع امرأة إيطالية أصيبت بالجنون بشكل مؤقت.

بعد أن أصيبت بالجنون كانت تتكلم الإيطالية بشكل رديء،

ومن ثم ومع تدهور حالتها، أصبحت تتكلم الفرنسية، وبعد أن بدأ جنونها بالانحسار أخذت تتحدث اللغة الألمانية، وأخيراً عندما بدأت بالتعافي، عادت إلى لغتها الأم، أي الإيطالية.

كما حدث أن أمضى عالم حِراجة عجوز تابع للحكومة ما تبقى من عمره في ألمانيا، كان هذا العجوز قد عاش على الحدود البولندية عندما كان صبيّاً. ولمدة ثلاثين أو أربعين عاماً لم يتكلم اللغة البولندية أو حتى سمعها من أحد، فيمكنك الافتراض أنه نسي اللغة بالكامل؛ إلا إنه وخلال الساعتين اللتين قضاهما تحت تأثير التخدير، تحدّث، وصلى، وغنى باللغة البولندية.

ومن بين معارف الدكتور راش كان هناك رجل ألماني قد عمل لسنوات كمبشّر للكنسية اللوثرية في فيلادلفيا، وأخبر راش بالقصة الآتية:

كان هناك بعض السويديين القدماء في الجزء الجنوبي من المدينة، مرت عليهم حوالي الخمسين أو الستين سنة منذ أن هاجروا إلى الولايات المتحدة، وكانوا خلال تلك الفترة نادراً ما يتحدثون بالسويدية، نادراً جدّاً لدرجة أنه لم يعد أحد يعتقد أنهم ما زالوا يذكرونها.

ومع ذلك، فقد صلى العديد منهم، وهم على فراش الموت، وعلى وشك أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، باللغة السويدية، لغتهم

الأم، فكان الأمر كما لو أن ذكرياتهم القديمة والمدفونة عادت لهم من مسافة بعيدة.

كانت هذه قصة عن اللغة؛ ولكن بماذا كان هذا اللغز يريد أن يخبرنا؟

من المرجح أن يجيبنا طبيب نفسي بقوله: «إنّ هذا النوع من الحوادث ليس أكثر من انحراف في الذاكرة».

ومن المرجح أيضاً أن شخصاً عاطفيّاً سيفتح ذراعيه العاطفيتين وسيعانق بهما أولئك العجزة تعاطفاً، أولئك العجزة الذين لا يسعهم إلا الصلاة بلغتهم الأم.

إذا كان الأمر كذلك، فما اللغة؟ هل هي مجرد رمز؟ ما اللغة الأم؟

كان هناك كتاب يقول: «تطورت الاختلافات اللغوية بين القبائل الهمجية لتصبح وسيلة تخفي القبيلة بها أسرارها عن القبائل الأخرى». إذا كان الأمر كذلك، فبعيداً عن كون الصلاة باللغة الأم تعدُّ تقليداً إنسانيّاً قديماً، مرتبطين نحن به ارتباطاً وثيقاً منذ الأزل، ربما تكون اللغة الأم أيضاً وسيلة للدعم العاطفي.

إن البشرية بتاريخها الطويل ليست الآن سوى جثة مربوطة على شجرة بحبال التقاليد، وإذا قُطعت هذه الحبال فسوف تسقط الجثة

ببساطة على الأرض. إن الصلاة بلغتنا الأم ليست إلاّ مظهراً من مظاهر تلك الحالة المثيرة للشفقة.

ورغم هذا - لكن لا، لا بدّ أنه كان يشعر بهذه الطريقة لأنه فقط كان يقرأ كتاباً عن اللغويات ولأنه تذكّر «كايوكو».

«قد تكون كايوكو بمثابة لغة أم بالنسبة لي».

2

«إن صدره ليس بعرض صدر الحمام؛ لكن لأجنحته العرض ذاته حين تكون مفتوحة».

كان هذا وصفاً لجندب، علقت هذه الكلمات في ذهنه عندما استيقظ، فقد رأى في حلمه جندباً عملاقاً.

و لم يستطع تذكّر أي شيء قبل هذا.

كان هناك جندب ضخم يطير في الأرجاء، ويضرب بجناحيه قرب أذنه؛ بل كاد يلمس خدّه. لقد فهم تماماً الأسلوب الذي عليه اتباعه لينفصل عن «كايوكو»، لقد علّمه الجندب كيف يفعلها.

وخلال لحظة كان يخطو على طريق ما في القرية، لا بد أن الوقت كان ليلاً، إذ بالكاد كان باستطاعته تمييز الأشجار المتناثرة على الطريق، وفيما أخذ الجندب الكبير الشبيه بالحمام يقفز بمراوغة حول خدّيه، لم يكن هناك أي صوت، ومع غرابة الموقف فقد أشعره ضرب الأجنحة بالإثارة، أحس بالأمر كما لو أنه قد لامس التعاليم السرية للبوذية الخفيّة في نبضات ضرب الأجنحة تلك، وبمعنى آخر فقد كان الجندب الشبيه بالحمام رسولاً للحقيقة. إنّ الانفصال عن «كايوكو» كان فعلاً صائباً أخلاقيّاً، لقد علّمه هذا الجندب دروساً أخلاقية.

أسرع على الطريق ذي اللون الحليبي وهو يفكّر بهذه الأفكار، وكأن أحداً بطريقة ما يلاحقه، وفي اللحظة التي جاء فيها إلى ذهنه وصف الجندب استيقظ من نومه.

«إن صدره ليس بعرض صدر الحمام؛ لكن لأجنحته العرض ذاته حين تكون مفتوحة».

***

كانت لزهرة «مسك الروم» ذات الأزهار المزدوجة رائحة تخيلها باللون الأبيض بالقرب من سريره، كانت هذه الزهرة خاصة بموسم شهر تموز، وفي هذا الشهر لا تُصرصر الجنادب، فلماذا حلم بالجندب إذن؟ هل حصل شيء ما معه في الماضي ليربط حشرة الجندب بكايوكو؟

من المؤكد أنه استمع برفقة «كايوكو» لصوت صرصرة الجنادب في الضواحي، وربما رأيا أيضاً هذه الحشرات وهي تطير في السماء عندما كانا يتنزهان معاً في حقول الخريف، ومع هذا، «ما الذي يجعل من ضربات أجنحة الجندب رمزاً أخلاقياً؟».

هذه هي طريقة عمل الأحلام؛ لكنه لم يستطع إلى الآن الكشف عن ذكرى له مع الجنادب لتساعده على تفسير حلمه هذا، فتبسّم وعاد للوراء غارقاً في النوم.

***

كانت هناك بجانب المنور فوق المدخل الواسع لمنزل المزارع غرفةٌ تشبه عش طائر السنونو، بُنيت على شكل برج، فخبأ نفسه داخل هذا العش الغامض؛ إلا إن شيئاً ما جعله يشعر بعدم الارتياح، فلم يستطع البقاء طويلاً في هذه العلية السرية؛ فتزحلق كلاعب بهلواني بوساطة عامود بامبو نحو الحديقة الداخلية، وكما كان يحدث في السابق كان هناك رجل يلحق به، فهرب من البوابة الخلفية. كان المنزل يعود لعمه في القرية، وكان هناك خارج البوابة في الخلف صبيٌّ صغير، مثل الصبي «إيسونبوشي» في القصة الخيالية، كان هذا الصبي يعترض طريقه كلما حاول أن يركض نحو مخزن الرز.

«لا، لا، لا يمكنك الاختباء في مكان كهذا».

«أخبرني إذن أين بإمكاني الاختباء؟».

«اختبئ في الحمّام».

«الحمّام؟».

«ليس هناك مكان آخر عدا الحمّام، أسرع، هيّا».

حثّه الصبي حينها على خلع ملابسه؛ غير أنه فكر بإمكانية حدوث مشكلة أخلاقية فيما لو رأى الرجل الآخر الصبي وهو يحمل ملابسه، فاندفع بدلاً من ذلك نحو نافذة الحمّام. ويا لها

من مفاجأة! لامسه شيء كالماء الدافئ الذي لم يكن سوى بشرة كايوكو، كانت قد تسلقت للحمام قبله، كانت بشرتها ناعمة وكأنها مدهونة بالزيت، وكان حوض الاستحمام صغيراً جدّاً بما لا يسمح بالاتساع للاثنين معاً.

«لن ينجح هذا، إذا رآنا الرجل بهذه الحال، فلن تكون هناك نهاية للشكوك التي ستحيط بنا».

إن ما أيقظه من نومه هذه المرة هو الإحساس ببشرة «كايوكو» على مسام بشرته في الحلم، بالإضافة للفزع الذي أحس به بعد هذا الشعور.

رأى تألق التصميم الذهبي على مخدة الرأس الخاصة بزوجته. كانت المصابيح ما زالت مطفأة وكان ضوء الصباح يتدفق بصفاء وبطء إلى الداخل. تلمَّس جسد زوجته التي كانت ملفوفة بالكامل حتى قدميها في ثوب نومها.

لم يكن إذن لمسه لجسد زوجته ما تسبب بحلم كهذا.

على أي حال، من كان هذا الرجل الذي كان يحاول ملاحقته وقتله في حلمه؟ كان بالتأكيد زوج «كايوكو» أو عشيقها؛ لكنها لم تكن مع رجل آخر أبداً عندما انفصلا؛ لذلك لم يكن ممكناً أن يراه أو يسمع عنه.

ظل يتساءل لماذا عليه أن يحلم بحلم يكون فيه مطارداً من رجل آخر.

هل جعلته العلاقة مع «كايوكو» مغروراً جدّاً لدرجة اعتقاده بأنه يمكن أن يكون موضع غيرة شخص ما؟

هذا ممكن.

وحتى الآن كان عليه أن يتعلم من الجندب أن انفصاله عنها كان أخلاقيّاً.

ربما لأنه لم يكن كذلك.

3

«أنا عمّ كايوكو»

قالها ثم دخل المنزل على الفور وكأنه لا يحتاج أن يقول أكثر من ذلك حتى يؤذن له بالدخول.

«في الحقيقة إن سبب قدومي إلى هنا هو أن «كايوكو» كانت قد أرسلت لي رسالة مثيرة للاهتمام؛ لذلك أردت أن أقابلك وأتكلم معك».

ألقى العمّ نظرة حذرة نحو زوجة الرجل وهي تقدّم الشاي.

«هلّا ناديتها، لو أنها هنا» طلب العمّ الإذن لرؤيتها.

«من؟هل تقصد كايوكو؟».

«نعم».

«ليس لدي أي فكرة عن مكانها؟»

«أنا على دراية تامة بالأمور، لطفاً لا تحاول أن تخبئ عنّي أي شيء، لقد تلقيت رسالة مرسلة من عنوان منزلك هذا».

أخرج العم رسالة من جيبه، كُتب على مقدمتها ولاية كاغاوا، وتساءل الرجل وهو يأخذ الرسالة فيما إذا كان عمها قد تكبد عناء السفر إلى طوكيو من مسقط رأس كايوكو في جزيرة شيكوكو

فقط لمجرد رؤيته، أشار عنوان العودة بالفعل إلى وصية كايوكو من عنوانه الحالي، تأكد من العلامة البريدية وقد أصابته الدهشة، كانت الرسالة قد أرسلت من مكتب البريد الواقع في مقاطعة آتامي حيث كان يعيش.

«اقرأها من فضلك».

(عمّي العزيز،

لقد تركت كامل شؤوني بيد السيد كيتاني، مصيري وجنازتي؛ لذلك أريدك أن تسامحني إذا لم تعد حتى خصلة من شعري إلى مسقط رأسي، أرجوك أن ترى السيد كيتاني إذا سنحت لك الفرصة، وأن تسأله عن هذا الشأن، أتساءل ما الذي قد يقوله عنّي.

وصية كايوكو للسيد كيتاني).

أيّ نوع من الأحاجي هذه؟ كيف علمت أين يقطن؟ ولماذا جاءت إلى الساحل هنا؟ هل لمجرد إرسال الرسالة فقط؟

وبعد يومين انتشرت شائعة أن صياداً من «أومي كيب» قد اكتشف انتحاراً مزدوجاً لعشيقين، قال الناس إن الصياد رأى بوضوح، ومن على قمة جرف يرتفع لثلاثمائة قدم، جسمين على أرض المحيط كوضوح السمك في حوض الأسماك، لعل المياه كانت حينها صافية على غير العادة في هذا الوقت المبكر من الصيف.

«إنها كايوكو».

كان من الطبيعي أن يكون حدسه صحيحاً.

لقد اختارت قريته موقعاً لانتحارها، كان وجه الرجل خالياً من أي تعابير؛ إلا أن هذا الرجل كان يحسد عشيقها، حتى في لحظة موته.

عند اقتراب الموت، تتآكل الذكرى، والذكريات الحديثة هي أول ما يتلاشى، ثم يمضي الموت للوراء حتى يصل إلى بدايات أقدم الذكريات، ثم تشتعل الذاكرة تماماً وللحظة فقط، كشعلة على وشك الإنطفاء، وهذه هي «الصلاة باللغة الأم».

وبهذا، فما كان يحترق في قلب «كايوكو» وهي تموت في المياه لم يكن شريكها في الانتحار؛ بل كان وجه عشيقها الأول، ربما كانت تلك صلاتها البائسة باللغة الأم.

«يا لها من امرأة حمقاء».

هذا ما قاله الرجل لعمّها بانزعاج وغضب شديدين يجعلك تظن معه أنه رغب في أن يركل الجثة، ولعله كان يتحدث إلى نفسه.

«لقد كانت متلبسة بشبح قديم حتى موتها، لقد كانت برفقتي لعامين فحسب؛ لكنها لم تتمكن من النجاة مني، لقد جعلت من نفسها عبدة لي، كصلاة لعينة باللغة الأمّ!».

حرق أغصان الصنوبر

ما زلنا في الأسبوع الأول من العام الجديد، إلا أن درجة الحرارة في «آتامي» كانت في السبعينيات على مدى يومين كما لو أننا في أوائل الصيف. كما نشرت صحيفة صورة لأزهار الخوخ في إحدى حدائق «طوكيو» وعلّقت عليها بقول: «خُدعَ الخوخ فأزهر»، فيبدو أن طوكيو كانت دافئة أيضاً.

أما عنّي فقد أُصبت بالبرد؛ إذ تعرضت لرجفة برد قوية امتدت على طول عمودي الفقري عندما خرجت بعد ذينك اليومين الدافئين.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبت للنوم في فترة متأخرة من بعد الظهيرة، وعندما استيقظت وتناولت العشاء كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، لعبت لعبة «غو» مع «أوكايو»، وبما أنني كنت مصاباً بالحمّى، فقد كانت كل حركة خاطئة تقوم بها «أوكايو» في أثناء اللعب تزعج أعصابي.

«أنتِ غبية للغاية، ودائماً تقولين أنك تطمحين لأن تكملي الدراسة - برأسٍ كرأسك هذا.»

ظهر على «أوكايو» الإحباط حينها، فلاذت بالصمت.

لـم تتخـرج الفتاة بعد مـن المدرسـة الثانوية للإنـاث، ولكنها ظلت حالمـة فـي أن تحصـل على الشـهادة الثانوية، ومن المؤكد أنها ليسـت بحاجـة أيضـاً إلـى مـن يزيدها إحباطـاً، ويحطـم آمالها من علـى الجهة الثانيـة للرقعـة فقـط لأنها لا تتقن لعبـة الـ «غو».

استعادت «أوكايـو» مرحهـا لكنهـا ظلـت صامتـة، كانـت السـاعة تشـير للثانيـة عندمـا أشـارت أن عليهمـا الذهاب للنوم؛ لكـن قبل ذلك ذهبـت إلـى الحمّام.

«أنصـت، أنصـت، ابـقَ هادئاً، لقـد عاد من جديـد». قالت لي ذلك، وانـزوت بخوف على أرض الحمّام.

كان هناك صوت يُسمع من السطح.

«أنصت».

حبسـت أنفاسـي، وبقيـت سـاكناً فـي مكانـي كمـا قالـت لـي؛ لكنّي لـم أسـمع أي شـيء هناك.

«إذا كان الوضـع هنـا هكـذا، فدعنـا ننتقـل إلـى مكان آخر فـي نهاية الشـهر». اقترحـت أوكايـو بخـوف، فوافقتها علـى الفور تطمينـاً لها.

«نعم. فلنقم بذلك.»

هـذا مـا حـدث في ذلك اليـوم، فعندمـا أراد اللصُّ أن يسـترق النظر

عبر الثقب في المطبخ، كان عليه أن يتسلل أولًا عبر السقف فوق الحمّام.

لا يمكن لأي أحد أن يعيش بهذا الشكل مع اللصوص.

لم نتوقع أن يكون اللص بهذه الوقاحة وأن يعود للمرة الثانية؛ إذ سيكون مستبعداً أن يستهدف المنزل ذاته لصٌّ مختلف، ومنذ تلك الحادثة كانت «أوكايو» تفزع بمجرد أن تخطو داخل المطبخ بعد حلول الليل.

وبدوري كنت أنصت أيضاً خلال الساعات المتأخرة من الليل علّي أسمع صرير خشب السقف من هنا أو هناك في المنزل.

لم أتخيل في حياتي أبداً بأن لصاً سيقتحم منزلاً لي، لكن بعد أن حدث هذا، أصبحتُ على الدوام أشعر وكأنني هدف للسرقة. آمنت أوكايو بمقولة قديمة تقول:

«عندما ترى شخصاً غريباً، فافترض أنه لص»؛ فيحدث كثيراً عندما كنّا نتجول حول القرية، أن أحدق إلى وجه صبي لفت انتباهي كثيراً، وأسألها ضاحكاً: «هل تظنين أن هذا هو اللص؟».

وفي ليلة عاصفة منذ يومين أو ثلاثة، كنّا نشاهد فلماً ولاحظت أن الصبي الذي كان يجلس بجانبي يشبه لص تلك الليلة أثناء تجولنا، لم تكن عيناي تخدعاني، كان وجهه من الجهة الجانبية

يشبه إلى حد كبير وجه اللص خاصة في هذا الضوء الخافت لقاعة السينما.

«يا له من لقاء غير متوقع!» حدّثتُ نفسي، ولم أستطع منع فمي من الابتسام، وكأن ما حدث كان خدعة من خدع القدر. عندما أضاءت الأنوار، رأيت أنه كان يرتدي زي مدرسة متوسطة، كانت لديه يدان جميلتان للغاية، لا أذكر أن للصبي اللص في تلك الليلة يدين جميلتين كهذه.

على كل حال، وفي ضوء هذه المستجدات الغريبة، لم أستطع بعد الآن، الاستهزاء بخوف «أوكايو».

قالت لي بعد أن صعدتُ للنوم في الأعلى:

«دعنا نبقى مستيقظين قليلاً». من الجيد أنني نمت حتى العاشرة ذاك المساء، فلم أكن بحاجة إلى النوم؛ فبقينا مستيقظين.

«أنصت، أنصت، ذاك الصوت، أحدهم هنا، ألا تعتقد ذلك؟».

بالفعل، كان هناك ضجيج آتٍ من السطح، وعندما أنصتُ أكثر بدا الصوت وكأن أحدهم يحاول أن يمشي برؤوس أصابعه على السطح. ولم أكد أتيقن أن «أوكايو» قد نامت أخيراً حتى فاجأتني باستيقاظها من كابوسها. قائلة لي:

«أحدهم دخل المنزل وكان يقف قرب وسادتي، شعرت بالخدر

في رأسي، ولم أستطع التحرك». وعادت للنوم.

وبعد قليل أنا من أيقظت «أوكايو»: «هيي، ما هذا الصوت؟ ذاك الطرق، تسمعينه، أليس كذلك؟».

فردت أوكايو: «إذا كان هذا الصوت هو ما تتحدث عنه فأنا أسمعه منذ مدّة هنا».

نبّهتها: «ألا يبدو وكأن أحدهم يطرق على شبكية الباب قرب المدخل؟».

«أعتقد ذلك».

بدا الصوت وكأنّ أحدهم يطرق على الخشب، نهضت وفتحت منظار مصراع النافذة ونظرت خارجاً، لم يكن هناك أثر لأي أحد في الحديقة، كان بإمكاني النظر حتى لما خلف زجاج المنزل في الجهة المقابلة للطريق، كان هناك ثلاثة أو أربعة فئران يتجولون على الأرضية الخشبية، وما ظنناه صوت طرق لم يكن إلا صوت قرع طبل من بعيد.

قلت لها: «إنه صوت طبل» وعدت إلى السرير محاولاً النوم، إلاّ أن صوت قرع الطبل بدأ يعلو ويقترب كما لو أن أحدهم يطرق عالياً عبر شوارع القرية.

«هذا مضحك، أتساءل لو كان هذا بسبب حريق في الغابة».

«ربما».

«لكن لو كان هناك حريق في الغابة؛ لكنا سمعنا الإنذار، أتساءل لو كان هذا الطبل بسبب لص، ولعلهم يوقظون القرية من أجل أن يمسكوا به».

بدا أن هناك أكثر من طبل أو اثنين، كان بمقدورنا أيضاً أن نسمع صراخ الحشد بين صوت القرع العشوائي.

«لعله بالفعل حريق في الغابة، أو أنه شغب، أو لعل طوكيو تشتعل، أو ربما هم لصوص جاؤوا لمهاجمة أتامي».

حتى أننا سمعنا صوت طلقة مسدس تتخلل أصوات الصراخ وقرع الطبول، فلعله أن يكون لصّاً محاصراً من أبناء القرية فأطلق النار.

فقلت لها: «أظن أنّي سأذهب بنفسي لأرى ما يحدث هناك».

«لا تذهب».

«أتساءل ما الذي يحدث».

«ألا يمكن أن يكون نوعاً من أنواع الاحتفالات كمِهرجان مثلاً؟».

عندما فكّرت فيما قالته بدا لي الصراخ وكأنه غناء، وتخيلت الناس وكأنهم يحملون ضريحاً.

ولكني أجبتها: «سيكون من الغريب أن يركض الناس هكذا ويوقظوا القرية بأسرها حتى لو كان هناك مهرجان».

«لعلّها تكون سفينة في مأزق ما».

«في ليلة كهذه لا رياح فيها؟».

«لا أظن ذلك».

«أتساءل فيما إذا اندلع ينبوع حار.»

نهضت من جديد ونظرت خارجاً. لاحظت أن هناك نيراناً وأدخنة على تلّة نحو اليمين.

«هناك نار مشتعلة».

«إذن فهي سفينة في مأزق».

«لكن في هذه الحالة ستكون النار أكثر قرباً للشاطئ».

لسبب ما جعلنا صوت قرع الطبول متوقّدين أكثر.

«أنتِ لستِ خائفة بعد الآن.. أليس كذلك.. مع كل هذا الضجيج الذي يصدره الجميع؟».

«لا لست خائفة» وكان صوتها أكثر إشراقاً.

وبعد برهة قالت «أوكايو»:

«هل ننفصل؟».

«لا بأس بذلك، ولا مشكلة لدي، ولكن ماذا ستفعلين بعد أن ننفصل؟».

«سوف أستأجر منزلاً مع أختي الصغرى، وسوف أرسلها للمدرسة، وأنا سأرتاد المدرسة الليلية، وسوف أعمل في مكان ما خلال النهار، وعليك أن ترسل لي بعض المال كل شهر».

«كم؟.»

«أعتقد أن سبعين ينّاً سيكونون كفاية».

«وماذا ستفعلين بعد تخرجك من مدرسة الإناث؟ لا يمكنك فعل شيء بتخرجك من مدرسة الإناث فقط.»

«سأدرس أكثر».

«ماذا ستدرسين؟».

«التاريخ واللغة اليابانية.»

«هممم.. ومن ثم ستصبحين معلمة في مدرسة الإناث؟».

«لا، لا أود أن أفعل ذلك.»

حسبنا بأدق التفاصيل فيما إذا كان باستطاعتها أن تعيش على

سبعين يناً مع أختها في الشهر.

وكما لو أننا شخصيات انبثقت من قصة خيالية، سألتني بالمثل: «وماذا ستفعل أنت؟».

«حسناً، أظن أنني سأعيش في نزل».

«إذن سآخذ معي أواني الطبخ في المطبخ».

«لا تقلقي سأعطيكِ عدّة المطبخ.. لو كان عندي بعض المال فقط، لاشتريت سندات عامة وربحت منها أقساطاً تصل إلى ألفي ين على الأقل».

***

غرقت «أوكايو» في نوم هادئ.

استطعت أن أسمع صوت بوق طويل قادم من جهة المحيط، ربما كانت هناك سفينة في مأزق بالفعل، استمرّ قرع الطبول، وبدأت السماء فوق المحيط بالتحوّل إلى اللون الأبيض مع إشراقة ضوء الصباح.

فكرت أنني سأشعر بالوحدة والبرد عندما أترك «أوكايو» وأبدأ بالعيش في نزل، قد أسافر إلى مكان ما، وعندما أعود ستأخذني «أوكايو» إلى منزلها؛ لكن حديثها عن الانفصال بشكل عارض،

ودون أي توضيح بدا وكأنه قصة خيالية، أسعدني ذلك وكأني كنت أشاهد غزالاً أسيراً يحاول الهروب نحو الجبال، بدا لي تفكيرها مثيراً للاهتمام، أي أن تعتقد بأن حياتها ستكون ذات معنى أكبر لو أنها عاشتها بمفردها في سبيل الحصول على تعليم بدلاً من أن تكون برفقة رجل.

شعرت بالتفاؤل يملأ روحي أيضاً حين وجدتها تفكر بهذه الاستقلالية.

***

نهضت وذهبت نحو الردهة، حيث تسلّلت أشعة شمس الظهيرة، وحيث كانت «أوكايو» تقوم بأعمال الغسيل.

قالت لي: «قالوا إن قرع الطبول البارحة كان من أجل حرق أغصان الصنوبر التي تستخدم لتزيين مداخل المنازل في رأس السنة».

«آه».

«أخبروني أن الأطفال يجتمعون كل عام في القرية ويحرقونها، ويقرعون الطبل حول القرية ليعلم الناس أن هذا ليس حريقاً في أحد المنازل، إنه يوم مخصص لإله الأطفال الذين ماتوا، حيث تبني أرواح الأطفال الميتين أكواماً من الحجارة في أسفل النهر

كتذكار من أجل أهلهم المتوفين، لكن الشياطين تسقطها، أو ما شابه ذلك، اعتاد الناس أن يشاهدوا هذه العادة خلال مهرجان بون، إلا أن أساتذة المدارس هذه الأيام يتذمرون بهذا الشأن، لقد أصبح هذا الحدث سنوياً في أتامي».

«هذا مثير للاهتمام، لكني أتساءل هل أحرقوا أغصان الصنوبر خاصتنا أيضاً؟.»

يأتي الأطفال في نهاية العام ليجمعوا التبرعات لتقديمها إلى أرواح الأطفال الميتين، ومن ثم في رأس السنة يأتون لجمع الصنوبر للزينة، لم أكن أفهم حينها ما الذي كان يحدث فكنت أصرفهم بعيداً، ولا أمنحهم شيئاً.

على أي حال، عندما خرجت للتأكد، لم أجد أي أغصان صنوبر على بوابتنا.

«إذن فقد اختفت زينتنا أيضاً! أتساءل متى أخذوها؟».

«أتساءل بالفعل.»

ولسبب ما كنت سعيداً.

الشمس الغاربة

أسرعت امرأة تعاني من قصر النظر في كتابة بطاقة وسط حديقة مكتب بريد صغير.

«نافذة القطار - نافذة القطار - نافذة القطار»، كتبت المرأة هذه العبارة ثلاث مرات، ثم مسحتها وكتبت: «الآن - الآن - الآن».

حكّ عامل التوصيل الخاص رأسه بقلم الرصاص.

***

كان في مطبخ المطعم الضخم طباخ يربط مئزر النادلة الجديد.

«هل ستجعلينني أربطه في الخلف؟ الجزء الخلفي هو الماضي، أليس كذلك؟ دعيني أربطه لك أمام صدرك «

«ماذا!».

***

اشترى الشاعر السكر أيضاً، وغرز الصبي العامل في مخزن السكر المجرفة الكبيرة في عمق كيس السكر.

«لاااا، فقد قررت ألا أذهب إلى المنزل وأطبخ كعك الأرز، فإذا

وضعت السكر في جيبي ومشيت حول القرية، ربما تسللت إلى مخيلتي بعض أحلام اليقظة البيضاء». قالها الشاعر ثم غادر المتجر.

ثم همس الشاعر إلى الحشود التي تخطته وهو يمشي:

«هيي، يا أيها الناس، إنكم تذهبون نحو الماضي، بينما أنا أمشي نحو المستقبل، فهل من أحد سيأخذ الوجهة نفسها التي أخذتها؟ أي إلى المستقبل بطبيعة الحال؟ لا بالطبع».

***

دارت دراجة صبي مكتب البريد حول المرأة قصيرة النظر:

«مرحباً، مرحباً».

«آوه، أنا قصيرة النظر، لا أستطيع حتى رؤية السكر الأبيض الناصع في محل السكر.. لقد ظننت أني رأيته مع تلك المرأة في شباك ذاك القطار، لكن ربما.... ربما هو يتساءل عني الآن... لو.... أوه، يا سيد التوصيل الخاص!».

***

ابتسم كلٌّ من الشاعر والنادلة في المطعم.

«إنه مثزر جديد أليس كذلك؟» دعيني أراه من الخلف - ها هي الفراشة البيضاء الجديدة تقف هنا».

«لا، لا تنظر إلى ماضيّ أرجوك.»

«لا بأس بهذا، فقد مررت بجانبك وأنا أمشي نحو المستقبل».

***

إذن فالشمس قد غربت دون إصدار صوت، الشمس التي كان بالإمكان رؤيتها في تلك اللحظة من على سطح مخزن محل الرهن في نهاية الشارع الممتد من الشرق إلى الغرب.

آه، في تلك اللحظة تنهّد قليلاً كل من كان يمشي في الشارع وأبطأوا من سرعة مشيهم بمعدّل ثلاث خطوات، إلا أنهم لم يلاحظوا ذلك.

أمّا الأطفال الذين كانوا يلعبون في نهاية الشارع الشرقي فقد نظروا نحو الغرب، انحنى جميعهم للأسفل، ليعطوا أنفسهم دَفعة، ثم استعدوا وقفزوا، كانوا يحاولون الإحاطة بمنظر غروب الشمس.

«أستطيع رؤيتها!».

«أستطيع رؤيتها!».

«أستطيع رؤيتها!».

«إنك تكذب، لا يمكنك أن تراها على الإطلاق...».

أميرة قصر التنين

«اجعل نصب شاهد قبري أطول من تلك المرأة، أجبِرها على معانقة الحجر، وادفنهما معاً في البحر».

تكلم الأب بهذه الكلمات في لحظاته الأخيرة اليائسة، طالباً من ابنيه أن يصنعا له نصباً باهراً.

قُتل الأب بطريقة قاسية ومريعة على يد زوجته الشابة وحبيبها.

حمل الابنان (وهم أبناؤه من زوجته الأولى) شاهد الضريح بخفّة إلى حافة جرف مطل على المحيط، كان الحجر أطول من تلك المرأة، عدوتهم. كانت الحافة مريعة لدرجة أنهم عندما رميا حجراً شاهداه يصغر ويصغر في سقوطه حتى انتهى لهما بحجم لا يتجاوز حبة سمسم، شعر الأبناء بالدوار فتوقفوا عن متابعة حجرهم قبل أن يرتطم بالمياه، ثم جرّد الابنان المرأة من ملابسها وربطاها على النصب بحبل غليظ ودفعا الحجر، وبشكل غريزي لفت المرأة يديها وقدميها حول النصب، وأصدرت صوت أنين كما لو أنها ما زالت على قيد الحياة ثم هوت من على الحافة.

ثم لنرى، ما الذي حدث بعدها؟ في منتصف الجرف وبغمضة عين بدا لهم أن الحجر توقف.

ما كان لبشر أن يتوقع ما حدث! فقد امتطت المرأة ظهر الحجر، وتحرك شاهد الضريح كما لو كان زلاجة تتزحلق على الثلج، وعندما أصبحت على وشك أن تغطس في المحيط تحولت إلى قارب صغير جميل ما لبث أن تسارع في عرض البحر كشعاع ضوئي.

تمسك الابنان ببعضهما عند رؤيتهما لهذا وصرخا: «سامحنا يا أبانا» ومن ثم انهارا على الأرض.

ركض حبيب المرأة إلى حافة الهاوية، كان قاربها سريعاً كالسنونو المندفع كالسهم عبر الهواء، ولم يكن باستطاعة قارب عادي أن يُمسك بها، فركض حبيبها إلى قبر الزوج وحمل أساس النصب عائداً إلى الجرف، ورمى بنفسه ممسكاً به نحو البحر. وبالفعل، تحول الحجر إلى قارب وانطلق به سريعاً كشعاع ضوء.

تشبث قارب الرجل بقارب المرأة، وتكلم معها قائلاً:

«علينا الآن أن نشكر الرجل الذي قتلناه».

«لا يمكن ذلك، لا يجب أن نشكر زوجي، لأنه إذا كان في قلبك أي ذرة من مشاعر الامتنان له، فإن قاربك سيعود إلى كونه شاهد ضريحٍ».

وقبل أن تنتهي المرأة من كلامها، تحول قارب الرجل إلى شاهد

ضريح، وغاص إلى أعماق البحر...

قالت المرأة عندما رأت ما حدث: «يا قاربي! تحوّل إلى حجر واتبع حبيبي أسفل البحر».

غطست المرأة العارية وهي تعانق النصب تحت سطح الماء كحورية البحر، إلا أن الرجل شعر بالإهانة بأن يغرق وحيداً في الأعماق؛ فصرخ قائلاً: «يا شاهد الضريح تحول إلى قارب مرة أخرى واطفو بي إلى سطح الماء نحو قارب حبيبتي!».

فبدأ بالارتفاع مرةً أخرى نحو السطح بعد أن كان في منتصف غوصه لعمق البحر، وذلك بعد أن قدم طلبه لروح الرجل الذي ساعد على قتله بكلتا يديه.

ثم لنرى ماذا حدث؟ التقت المرأة وهي تغرق بالرجل وهو يرتفع عالياً، وأخيراً غرقت المرأة هابطةً إلى الأعماق وحدها.

وأصبحت تلك المرأة أميرة قصر التنين.

(عندما أخبرتني إحدى الفتيات بهذه القصة المجنونة، اعتقدت أنها سوف تنتحر عشقاً هي الأخرى؛ وبالفعل فقد قفزت إلى البحر مع حبيبها، إلا أن الرجل مات، وهي عادت للحياة، وفي تلك اللحظة صرخت والتصقت بالزوج الميت الذي خدعته، ولاحقاً عندما رأيتها مجدداً قالت: «قصتي تماماً كالقصة الخيالية، حتى النهاية كانت مثلها تماماً!).

العدّو

ذرفت نجمة السينما دموعاً كبيرة في الضوء الخافت بينما كانت تشاهد فيلماً لعبت فيه دور البطولة.

كان والدا الممثلة من أكبر أعدائها خلال حياتها، وكان شقيقها ثاني أكبر أعدائها؛ لذلك ومنذ ذلك الوقت رأت في كل شخص في العالم عدوّاً لها، وكان الرجال خاصة من ألدّ اعدائها، وكانت الممثلة كلما ازداد أعداؤها واحداً كلما خطت خطوة أخرى نحو هاويتها المظلمة.

والآن، على شاشة السينما، كانت تظهر لها أكثر الفتيات المثيرات للشفقة في العالم، وهي تُباع لرجل بواسطة والديها في أحد مشاهد الفيلم.

بكت الفتاتان: التي تُشاهد وتلك التي تُشَاهد في الفيلم في الوقت ذاته، ومع تقدم أحداث الفيلم، شعرت كلا الفتاتين بالحزن لخسارتهما عذريتهما.

لم تكن الفتاة التي تشاهد الآن تستعيد وتتذكر ذاك الوقت المريع في ماضيها فحسب؛ بل كانت تشعر وكأنها تعيشه من جديد، ففي ذلك الوقت البعيد وفي أثناء تصوير هذا المشهد لم تكن الممثلة تشعر بأنها تمثل؛ بل تشعر أنها تعيد تجربة الألم الرهيبة الذي

عاشته بكل جزء من جسدها.

وبكلمات أخرى، لقد خسرت الممثلة عذريتها ثلاث مرات حتى الآن، وبمعنى آخر لقد كانت عذراء ثلاث مرات أيضاً!

وفي مخاض حزنها الثالث، تم إيصال رجل وامرأة إلى المقعدين اللذين أمامها، وبدون تفكير، بدأت الممثلة بالحديث معهما، لقد كانا ممثلة ومخرجاً من الاستوديو خاصتها.

وعلى الفور استدارت الممثلة التي أمامها نحو المخرج بجانبها، كما لو أنها أرادت بهذه الاستدارة المفاجئة أن تعلو بوجهها على الوجه الحزين الظاهر على الشاشة، وهمست له:

«انظر إليها، لا تبدو وكأنها عذراء ساذجة، لقد خسر جسدها شكله كله، أوه، انظر إلى هناك، ثدييها المترهلين...».

«آه! ليس بوسعي أن أقتلها!» قالتلها الممثلة وانزلقت من على مقعدها على الأرض على ركبة واحدة.

ولأول مرة في حياتها، واجهت الممثلة عدوّاً حقيقيّاً.

كانت المرة الرابعة التي خسرت فيها الممثلة عذريتها على يد هذه الممثلة التي أمامها، وكانت خسارتها هذه المرة بلا أي أثر يُرى، أو أي ظلّ يلاحظ.

وكأنها أدركت أنه لا يمكن لرجل أبداً أن يسلب امرأة عذريتها.

جميلة الحصان

«ليس هناك أحد أكثر كرماً منّي في هذا العالم بأسره، لقد منحت زوجي لامرأة أخرى، ها، ها، ها، ها، ها!».

ضحكت والدة الفتاة، وتحرّك بطنها الممتلئ كالبرميل. لدى هذه المرأة بطن لن يسمح لها بالحزن حتى لو أرادت هي أن تحزن، كان قلبها خفيفاً، وكأنه يرتفع بالبالونات المنتفخة، كتلك التي تنفخ بطنها.

«ليس هناك أحد أكثر كرماً منّي في هذا العالم بأسره، فقد منحت ابنتي، وحصاني، ومنزلي، إلى زوجتي».

لعل هذا ما قاله والد الفتاة. كان يعيش مع عشيقته في مكان صغير على ضواحي البلدة.

كان منزل الأم يقع في أحد الحقول، وكانت من خلفه سيقان بستان البامبو تصنع موجاتٍ راقصة من أشعة الشمس الهابطة عليها، كما تعلّقت عرانيس الذرة كالفوانيس على قمم المنزل القديم، ونمت أوراق زهرة «القسموس» في الحديقة، ورفرف ديك أبيض بجناحيه بمحاذاة «القسموس» وكأنه يحاول أن يمزق السيقان الضعيفة للأزهار.

أخرج الحصان رأسه من الإسطبل وأطل به فوق هذه الزهور التي بدت وكأنها اصطناعية. كان الأب قد ترك الحصان خلفه بعد أن انتقل بعيداً وذلك بسبب الحاجة إليه هنا. أطلق الشبان في القرية لقب «جميلة الحصان» على ابنة الرجل.

كانت جميلة الحصان تعرف رجلاً عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها.

كانت هناك فقط عينان في القرية تتحركان كنقط من ضوء، وهما عينا جميلة الحصان، كانت عيناها قاتمتين، وكان صوتها ثخيناً كصوت رجل، وفيه بحّة، كبحّة صوت مصارع «سومو» كسر تفاحة آدم الخاصة به. أضف إلى ذلك، أن صوتها كان يغدو أكثر رجولة بمرور السنين.

ولكن بالنسبة لجميلة الحصان، فقد بدا وكأن هذه الرجولة المتزايدة قد عززت من أنوثتها، كان هذا واضحاً من الإثارة التي سبّبتها بين مختلف الشبان.

في أحد صباحات شهر أيار، كانت جميلة الحصان خارج المنزل في حقول الأرز بصحبة والدتها، كانت الأم تمشي مُجهدةً وهي ممسكة بذراع المحراث الذي كان يقوده الحصان، أخذت شفرة المحراث تخرج من الأرض باستمرار، وعند رؤية الفتاة لهذا المنظر اندفعت بقوة نحو الحقل كحصان وحشي برّي، وأخذت

ترشّ المياه الموحلة على كامل مساحات ظهرها.

«أيتها الحمقاء!» شتمت أمها وصفعتها على وجهها. فردت عليها: «ماذا تظنين أنك فاعلة؟ لا يجب عليك أن تعبثي بالماء، عليكِ أن تقلبي التربة! التربة!».

توقفت الأم ووضعت يدها على وجنتها المصفوعة، وظلت مسحوبة للأمام بالمحراث الذي كانت تمسك ذراعه بيدها اليمنى، ترنحت الأم وضحكت، وأخذ بطنها يهتز، ولكنه اهتز بحزنٍ أكثر الآن من تلك المرة التي تركها فيها زوجها، ثم قالت للقرويين في حقل الأرز المجاور:

«لدى ابنتي العديد من الأزواج، لكنني زوجتها الوحيدة، هذا أكثر مما أطيق».

قالت الأم إنها تود الذهاب إلى منزل زوجها، كان غارقاً في الدّين فباع منزل زوجته وحصانها لأحدهم، وافترق عن عشيقته.

كان ضوء القمر ساطعاً بوضوح لدرجة يمكنك معها سماع حضوره وهو يغمر المنزل والحقول بضوء أخضر اللون.

توقف اهتزاز بطن الأم الكبير، فقد كانت تحلم بمنزل زوجها الذي كانت تنوي زيارته في اليوم التالي. وحدث في أحد أحلام الأم تلك، أن قفزت جميلة الحصان من سريرها وبصقت على بطن والدتها.

في تلك الليلة ذاتها، امتطت الفتاة سرج ظهر الحصان في الإسطبل، فأخذ الحصان يدوس على زهور «القسموس» تحت حوافره، ويسحقها تحت ضوء القمر، ثم انطلق مندفعاً بأقصى سرعة كنيزك أسود نحو الجبال في جهة الجنوب.

وبحسب رواية قرويّ:

«سمعت أنها باعت الحصان في بلدة الميناء، ثم ذهبت إلى منزل أحد الرجال عبر قارب».

أما بحسب رواية أمها:

«كانت ابنتي زوجي، ولكن يبدو حتى ابنتي هربت وراء أحدهم».

وبحسب رواية أبيها:

«كان من الخطأ منحها لقب: «جميلة الحصان»؛ لهذا السبب هربت على الحصان الذي باعته.»

وبحسب رواية أحد الشبّان:

«رأيت ما حدث، لقد طارت جميلة الحصان من على قمة الجبل كالسهم نحو القمر، طارت بحصانها وبكل شيء كان معها».

الطهارة تحت السقف

«سأكون بانتظارك على التلة في الحديقة عند الساعة الرابعة.»

«سأكون بانتظارك على التلة في الحديقة عند الساعة الرابعة.»

«سأكون بانتظارك على التلة في الحديقة عند الساعة الرابعة.»

أرسلت المرأة الرسالة نفسها عن طريق التوصيل الخاص إلى ثلاثة رجال مختلفين -كان أحدهم يمشي مستعيناً بعصا، والثاني يرتدي نظارات، أما الأخير فلم يكن يحمل عصاً أو يرتدي نظارات.

وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر على التلّة، سرعان ما تفتّحت تلك المرأة كزهرة القمر، ببراعم جديدة سمحت لهواء الصباح أن يلامس أوراقها الغضة للمرة الأولى، إلا أن تلك البراعم أحست بالأسى من أطراف أغصان الزهرة؛ لأن أول ليلة في حياتها كانت على وشك القدوم.

صعد الرجل ذو العصا نحو التلة، ولا بد أن مقبض عصاه استشعر الحقيقة، وهي أنها كانت في كل يوم تبعث برسائل خاصة إلى عدّة رجال، وأن أول رجل يصل إلى التلة سيكون لها في تلك الليلة.

أبدت المرأة ابتسامة جميلة، كابتسامة من ولد في هذا العالم

للتوّ، كما أغلقت عينيها بجدّية وهي تركض أسفل التلة بخطوات بريئة تدفعها تجاه ما أمامها.

«يا إلهي، كم أنا ممتنة أنك عن طريق هذا الرجل باركت طفلة مثلي ومنحتني الراحة في ليلة هادئة أخرى، وأطلب منك -إذا ظللت حية حتى الغد- أن تمنحني بوساطة أحد أبنائك سكناً للّيلة التالية».

وبينما استقرّت المرأة قرب الرجل، أطلت عليها منازل المدينة العالية بلا مبالاة باردة من أسفل التلة، فحدّقت إلى ما فوق المنازل، وقالت مبهورة:

«يا أيتها السقوف، السقوف، السقوف، يا أيتها السقوف العديدة التي ترتفع برؤوسها نحو السماء، يا أيتها الآلهة الحارسة لطهارة امرأة، فكل سقفٍ منك يدافع بلا رحمة عن شرف امرأة، إنني أقضي كل ليلة تحت سقف مختلف، وكان كل سقف يمنحني شعور النوم بعفة في تلك الليلة. آه، فأي تلك السقوف سيكون لي هذه الليلة؟ أرجو أن سقف هذه الليلة سيكون السقف الوحيد غير الغاضب مني، وهكذا...».

اختفى الرجل والمرأة تجاه البلدة.

القمر

آه. أيتها العذرية، يا لك من شيء مزعج ولا يطاق! أنتِ حمولة لن أفتقدها أبداً، فبينما أسير عبر الشوارع الخلفية القاتمة وخلال الجسور، لن يؤثر فيّ أن أرميكِ ببساطة في حاوية قمامة أو في النهر، إلا أنني الآن وقد خرجت نحو الشارع الممهد والمضاء، أخشى أنه لن يكون من السهل أن أجد مكاناً لأتخلص منكِ. إضافة إلى ذلك، أنه عندما تتعجب امرأة من حمولة عذريتي وتشعر بالفضول لما يوجد في داخلها، ألا يجدر بي الشعور بالخجل؟

هل لأنني بسبب حَملي لثقلها هذا العمر كله الذي أثقل أفكاري أيضاً، أشعر حقّاً أنه ليس بمقدوري أن أعطيها لكلب ما على قارعة الطريق؟

لكن في هذه الأيام بالذات، ازداد انزعاجي المتواصل من الأمر وخاصة بعد أن حاول العديد من النساء أن يحببني. فيا له من شعور، أحسست به وكأنني أرتدي قبقاباً مرتفعاً وثقيلاً لا يتوقف عن صنع الحفر في الثلج أثناء السير، لو أن باستطاعتي فقط الركض حافي القدمين على ذلك الثلج لكانت مشاعري أكثر خفة.

كانت هذه أفكاره.

وقفت إحدى النساء بجانب وسادته؛ لكنها ما لبثت أن سقطت بقسوة على ركبتيها، وبهذه الطريقة استطاعت أن تنحني فوقه وتتنفس رائحته.

امرأة أخرى التصقت به بينما تظاهر بدفعها، كانت المرأة منحنية على سور الشرفة في الطابق الثاني؛ لكنه عندما أفلت منها، واصلت النظر إليه مجدداً بهيام كما لو أنها ستتبعه سقوطاً نحوه، فعادت للانحناء للخلف نحو السكك الحديدية، وانتظرته وهي تحدق له بكامل صدرها.

وامرأة أخرى بدأت يدها بالارتجاف وهي تمسك بكتفه، كانت هذه المرأة تغسل ظهره وتشطفه في حوض الاستحمام.

وامرأة أخرى تركته عنوةً وبشكل غير متوقع نحو الحديقة عندما كانا يجلسان معاً حول ردهة في الشتاء، ذهبت المرأة إلى محمية الشجر، وبسطت وجهها للأعلى على الأريكة ولفّت كوعاها بثبات على وجهها.

وامرأة أخرى توقفت بصلابة تامة عندما لامسها من الخلف مازحاً.

وامرأة أخرى أغلقت شفتيها عندما أمسك يدها، ثبّتت جسدها بشدة، واستدارت مبتعدة وهي تتظاهر بأن عليها الذهاب للنوم الآن.

وامرأة أخرى أحضرت عدّة الخياطة ذات ليلة إلى غرفته وبقيت إلى وقت متأخر عندما كان خارجاً، وعندما عاد، استقرت هناك بثبات كالحجر، واحمرت خجلاً وهي تخبره أنها كانت تستعير مصباحه فحسب. كان صوتها أجشّاً وغير مألوف، كما لو أن كذبة علقت في حلقها.

وامرأة أخرى كانت تصرخ كلما التقته وجهاً لوجه..

كما سردن فتيات أخريات في غاية النضج قصصاً شخصية عاطفية بينما كنّ يتحدثنّ إليه، ومن ثم حين لم يعد بإمكانهن أن يقلن المزيد، كنّ يجلسن أمامه وكأنهن فقدن كل قدرة على الوقوف من جديد.

في ذاك الوقت، وعندما وصل الأمر بالشاب العذري إلى هذا الحد من الانزعاج، كان يغوص في صمت أبيض، أو كان يستمر بقول الشيء ذاته كل مرة:

«لقد قررت أنني لن أتأثر بأي امرأة عدا امرأة تنوي أن تضم حياتها إلى حياتي».

وبعد أن بلغ الشاب الخامسة والعشرين من عمره، غدت نساء كهؤلاء- أي اللاتي لن يضممن حياتهن إلى حياته- أكثر شيوعاً في حياته؛ وبالتالي أصبح الحائط المحيط بعذريته أكثر صلابة شيئاً

فشيئاً، إلا أن إحدى النسوة تمادت بعيداً بقولها إنّ رؤية وجوه غير وجهه أصبح لا يطاق، أمضت تلك المرأة أيامها تائهة، حتى ظن أنها قد تموت حباً إذا لم يحنُ عليها.

لقد استشعر أن النسوة اللاتي عليه أن يحنو عليهن، واللاتي لن يضممن حياتهن إلى حياته، واللاتي لن يؤثرن فيه، سيزددن عدداً؛ فابتسم الشاب قائلاً:

«إذا قمت بذلك، وأنا لا أملك إلا القليل من المال، فسأغدو مفلساً».

فلعله إذن سيغامر بأن يكون متسولاً كما كان من قبل عدة مرات، متسولاً لا يحمل إلا حمولة عذريته، متسولاً سيبدو مصاباً بالفقر المادي لكنه مليء بالغنى العاطفي؛ وذلك لأنه أعطى فقط دون أن يأخذ بالمقابل أي شيء، سيفعل ذلك حتى ينتهي به الأمر راكباً على ظهر حمار، ومتجهاً نحو بلد بعيد...

امتلأ صدره بالعاطفة الكامنة داخله وهو يعبث بأحلام اليقظة هذه، إلا أنه لم يعد قادراً بعد الآن على تخيل أنه سوف يجد امرأة في هذا العالم تودّ أن تضم حياتها إلى حياته.

نظر للأعلى فرأى القمر مكتملاً، كان القمر مضيئاً للغاية في تلك الليلة فبدا بسطوعه وكأنه المخلوق الوحيد في السماء، فرفع

الشاب العذري كلتا يديه وبسطهما نحو القمر قائلاً:

«يا أيها القمر! إني أمنح مشاعري لك وحدك!».

امرأة

كان لكاهن زن في مدينة القلعة رأسٌ بهيئة اليقطين.

بادر هذا الكاهن مقاتل الساموراي الذي دخل من بوابة المعبد قائلاً:

«أتساءل إذا كنت قد رأيت ناراً في طريقك إلى هنا؟».

«أسألك هذا لأن امرأة انهارت أمامي باكية، وقالت إنها تبكي لأن زوجها مات حرقاً، كان منظرها مؤسفاً.»

«ها، ها، ها، لقد كان بكاؤها مزيفاً».

«ما الذي تعنيه؟».

«كانت تلك دموع التماسيح. كانت فرحة لموت زوجها، وعلى الأرجح أن لديها رجلاً آخر غيره، لقد جعلاه يثمل بالتأكيد، ومن ثم قتلاه بإدخال الإبر في رأسه، ومن ثم أحرقا المنزل».

«هل هناك شائعة بهذا الشأن؟.»

«لا، لا توجد شائعة؛ بل هو بكاؤها ذاك».

«بكاؤها؟».

«يمتلك بعضنا أذنين كأذني بوذا».

«آه. فهمت، إذا كان هذا صحيحاً، فهي امرأة بغيضة بلا شك!».

حرّك محارب الساموراي الشاب عينيه بشكل دائري، وانطلق خارجاً من بوابة المعبد.

ثم عاد بعد برهة بوجه شاحب.

«يا كاهن».

«ما هناك؟.»

«لقد أخضعتها للعدالة، لقد قتلت تلك المرأة بضربة واحدة من سيفي».

«ها، ها، ها، ها، هل فعلت حقاً؟».

«لكنني في اللحظة التي رأيت فيها بريق سيفي ينهال نحوها، راودني الشك فيما قلته لي، لقد كانت المرأة متشبثة بجسد زوجها المتفحم وتنوح بأعلى وأقوى صوت ممكن لها، لقد ضّمت كلتا يديها معاً قبل موتها بلحظات وشكرتني، ثم قالت لي: «هلّا قتلتني؟»، هلّا أرسلتني إلى حيث ذهب زوجي، شكرتني مرة أخرى، وماتت وهي تبتسم».

«أعتقد ذلك، لا بد أن هذا صحيح».

«ما الذي تقوله؟».

«عندما مررت أنا بها، كان بكاؤها مزيفاً، وعندما مررت أنت كان صادقاً».

«كيف لكاهن مثلك أن يخدع الناس هكذا؟».

«كل ما في الأمر أنك لا تملك أذنين كأذني بوذا.»

«لقد لوثتُ سيف محارب، فماذا عساي أفعل بهذه الخطيئة؟».

«لا بد أن أطّهر سيفي، اسحب سيفك، هيّا أيها الكاهن».

«لأقطع رأسك هذا، الشبيه باليقطين».

«سيلوث هذا سيفك مرة أخرى».

« وعلى الرغم من ذلك..».

«اسحبه، وأعطه لي».

أخذ الكاهن نصل السيف المسلول، وبصرخة، رماه على نصب حجري في المقبرة، فنفذ السيف في شاهد قبر، فرشح دم أحمر من الحجر.

«أوه، أوه».

«إنه دم زوج المرأة الذي قُتل.»

«دم الرجل؟».

بل إنه دم المرأة التي قُتلت»».

«ماذا؟ هل تحاول أن تعذبني بشعوذتك هذه أيها الكاهن؟».

«هذه ليست بشعوذة، يعود هذا القبر لأسلاف ساكني المنزل الذي احترق».

أخذ محارب الساموراي يرتجف.

«يا كاهن، هذا السيف شهير تناقلته الأجيال في عائلتي».

«حسناً، إذن، لم لا تحاول إخراج سيفك من الحجر؟».

وضع الساموراي كلتا يديه على السيف وانتزعه بعنف، فانقلب الحجر، وفي تلك اللحظة انكسر النصل إلى نصفين، ولم يخلف النصل أي أثرٍ صغيرٍ على الحجر ولو بحجم خدشة ظفر، وعاد سطح الحجر كما كان مُغطىً بطحالب خضراء ملساء.

«ما هذا؟ إنه لسحر أيها الكاهن».

وعندها سقط محارب الساموراي إلى الوراء على الأرض وحدّق بنظرة فارغة على السيف المكسور، واستدار الكاهن ومشى مُكملاً سيره نحو معبده المقدس.

«حان وقت بدء الطقوس الدينية».

غرفة انتظار من الدرجة الثالثة

تطلّب الأمر بعض الإقناع ليرضى الرجل بالجلوس في غرفة انتظار من الدرجة الثالثة في محطة طوكيو. كانت قد اختارت هذا المكان للّقاء، قاوم رغبتها في البداية، فلم تكن لحياتها أي صلة بمكان مثل غرفة انتظار كهذه من الدرجة الثالثة.

«يوجد غرفة انتظار منفصلة خاصة بالنساء في الدرجة الأولى والثانية، ما أعنيه هو أنه إذا كنتِ في غرفة الدرجة الثالثة لن أعرف حينها ما أفعل، سوف تجذبين الانتباه».

«أنا؟ وهل تراني من النساء اللواتي يجذبن الانتباه؟».

تقبّل تواضعها بخنوع.

إلا أنه وعلى الرغم من موعدهما، لم يستطع الذهاب مباشرة إلى غرفة الدرجة الثالثة حين وصل إلى محطة طوكيو.

لم يكن من ذاك النوع من الرجال، لاحظ أن الساعة ما زالت عند الخامسة إلا ربعاً، فذهب إلى غرفة الانتظار المحجوزة لركاب الدرجة الأولى والثانية، وشغل انتظاره برؤية فيلم عن مناظر «ماتسوشيما» كان يعرض على شاشة صغيرة مثبتة داخل الحائط. ثم فكّر قليلاً في صديق قديم من «أوساكا» وقرّر أن يكتب

له رسالة، وفي طريقه لمكتب البريد في المحطة لإرسال رسالته تمكن من إجبار نفسه على دخول غرفة انتظار الدرجة الثالثة.

لم يكن هناك شاشة ترفيهية على الحائط هنا؛ وذلك لأن ركاب الدرجة الثالثة لن يهتموا على الأرجح بالذهاب في جولة سياحية إلى مكان مثل «ماتسوشيما». نزّه عينيه بملل في الغرفة، كان هناك حشد من الطالبات الشابات من القرية وعلى الأغلب أنهنّ كنّ في طريق عودتهن لبيوتهن من رحلة مدرسية، تحادثن فيما بينهن داخل الغرفة، فيما جلس هو في ظلهنّ وكأنه يحاول الاختباء، مسمراً النظر في قبعة تقليدية مصنوعة من نبات البردي يرتديها حاج بوذي على المقعد المواجه له.

فاحت رائحة الحبر الذي ما زال رطباً من السطور السبعة المكتوبة على مقدمة القبعة، والتي أدرجت بالتفصيل أصل السائح الحاج ووجهته، كما لاحظ أيضاً أن الحاج كان يرتدي رداءً من القطن الأبيض تحت ثوبه البوذي الأسود. نظر الحاج إلى «خريطة حجاج شيكوكو» الملونة التي بسطها الكاهن على ركبتيه، قبل أن يودعه ويذهب، وهزّ رأسه لكل كلمة قالها الكاهن له، لاحظ أيضاً أنه كان يرتدي نظارة قاتمة وكبيرة أخفت حتى حاجبيه الكثين، وفكر أن تلك النظارة لم تكن مناسبة لشخص كبير.

فكر الحاج بالرحلة إلى «شيكوكو» تلك الرحلة التي ستنتهي

بأن تصبح قبعته الجديدة قديمة ومهترئة، لا بد أن هذا الرجل يشعر بعميق السعادة وهو على وشك الانطلاق في رحلة حج قد حلم بها لسنوات.

أحس الرجل بالمسافة البعيدة التي تفصل سعادة الحاج الفردية الآن والسعادة التي كان ينتظرها هناك؛ لكنه حين فكر بالأمر مرة أخرى تساءل، ألم يقم جداه برحلة حج كهذه معاً إلى شيكوكو؟ كان باستطاعته الآن أن يستعيد بوضوح ويسمع رنّات أجراس الحجاج تلك في ذكريات طفولته عن بلدته الأم.

ما هذه الذكريات التي يستعيدها؟ لم يكن بمقدوره الاسترسال في التفكير بالأمر أكثر من ذلك، بعد أن أحس بانزعاجه من أن عليه انتظار تلك المرأة.

لعلها كانت معتادة ببراعة على ترتيب لقاءات العشاق السرية؛ فعرفت من خلال خبرتها الطويلة أن المواعدة في غرفة انتظار من الدرجة الثالثة سيجذب انتباهاً أقل مما لو كان اللقاء في غرف الدرجتين الأولى والثانية. ولعله كان مخطئاً بظنه هذا.

ولعلها كانت تضحك على عشاقها بسخرية، وتصنفهم سرّاً ضمن مجموعة تلتقي بها في غرفتي الانتظار الأولى والثانية وبين مجموعة تلتقي بها في الثالثة. ربما.

راودته أفكار كثيرة بهذا الغباء، وأخذ يتخيل أنها الآن تلتقي برجل من مجموعة الدرجة الثانية، فنهض على الفور ليلقي نظرة سريعة على غرفة الانتظار الأخرى، وفي أثناء تجوله عائداً، اصطدم بزحام سيل من الناس.

لاحظ أن هناك شرطياً كان يقتاد الكاهن والحاج بعيداً.

«إنك تعتقد أنني من النساء اللواتي يركبن في مقطورة الدرجة الثانية في القطار، لكنّ هذا ليس خطأك، فأنا أحاول عادة أن أظهر نفسي بهذا الشكل، فالبارحة عندما تراجعت قليلاً عنك وأخبرتك أن تأتي إلى غرفة انتظار الدرجة الثالثة، فضحت خداعي بنفسي، وعندما عدت للمنزل لاحقاً فكرت في الأمر أكثر، وتوصلت لقناعة بأن الرجل الذي يظن أنني امرأة تركب الدرجة الثانية لا يمكن أبدًا أن ينجح في علاقته معي».

كان هذا مكتوباً في ملاحظة وجدها تنتظره من المرأة عندما عاد من محطة طوكيو.

لعل محاولتها في أن تُظهر كراهيتها لذاتها لم تكن في الحقيقة إلا طريقتها في السخرية منه، وبكل الأحوال فإنه على الأرجح سوف يعيش حياةً بعيدة كل البعد عن غرف انتظار الدرجة الثالثة. وغالباً ما سيرغب في الاحتفاظ بانطباع رومنسي عن المكان الذي انتظرها فيه، عبر إبقائه لمشهد الكاهن والحاج في ذهنه، إلا أنه

لم يستطع أن يصدق أن رداء الحاج لم يكن إلا زيّاً تمويهيّاً يخبئ مجرماً تحته، كما لم يصدق أيضاً أنها من نوع النساء اللاتي يركبن في الدرجة الثالثة.

الساعة

تلقى محام يعمل في مكتب قانوني مبلغاً صغيراً من المال لقاء عمله في الدفاع عن مستشار للمدينة في قضية رشوة، وبشكل مفاجئ وجد نفسه بالقرب من صديقة أنيقة في الوقت ذاته.

فدعاها للذهاب إلى المسرح.

عندما غادرا المسرح أوقفا سيارة أجرة صغيرة. وكانت هذه المرة الأولى في حياته التي يركب فيها سيارة، كان الرجل أيضاً قد تجنب منذ ستة أشهر الركوب في باص، وذلك منذ قرر الذهاب في رحلة إلى ينبوع حار، مفضلاً الزحام في عربة مغطاة يجرها حصان على الباص.

أراد هذا المحامي الاحتفاظ بالإحساس برفقة المرأة الشابة بقربه، وحاول قدر الإمكان منع هذا الشعور من التلاشي، وهو يجلس في هذا الجو المنغلق داخل سيارة الأجرة الصغيرة، إلا أنه وداخل هذه السيارة المسرعة عبر الليل البارد والخالي من أي صوت للريح، شعر بتقلص مشاعره وانكماشها نحو إحساسه بالجُبن، لدرجة نسيانه أين موقعه الآن في المدينة، وإلى أين تتحرك بهما سيارة الأجرة.

فتحدث شارداً:

«لا تنتظر أمام المسرح إلا سيارات الأجرة الرخيصة، لكنّ تحمّل هذا الضيق يظل في كل الأحوال أفضل من المشي إلى حيث تقف سيارات الأجرة الفاخرة. الجو بارد جداً».

«نعم.»

أجابته بإيجاز، ثم استدارت نحوه كما لو أرادت أن تطلب منه شيئاً، فأضاف بسرعة:

«تصدر هذه السيارة خشخشة واهتزازاً، وعلى الرغم من صغر حجمها إلا أنها باردة.»

ومن ثم -وكما لو أنه يبرر لنفسه شيئاً ما- بدأ بالتربيت على المقعد الجلدي العاري والصلب قائلاً:

«هذا لا يطاق، ولدرجة لا تُصدق».

فردت عليه: «هذا صحيح».

لم تنجح الفتاة بإيجاد رد مناسب؛ فأحس بمشاعره تتحول إلى برود ممزوج بقليل من كراهية للذات.

أراد أن ينقذ الموقف؛ فمدّ يده بإصرار وقحٍ محاولاً أن يقلب يدها التي كانت رابضة في حضنها وسألها:

«كم الساعة؟».

فصرخت المرأة بحدة بشكل مباغت وغير متوقع: «أوه لا! هذه الساعة لا تعمل».

فسحب يده عن يدها، وقد شعر بالدهشة، فيما احمرّت هي خجلاً.

«حقيقة أنا لا أحب هذه الساعة؛ لأنها تبدو كبيرة جدّاً نسبة لذراعي النحيلة، إنها يابانية الصنع، وبجانب هذا، فهي قديمة الطراز. متى لاحظت أني أرتدي ساعة؟ كنت تنظر تحت كمّي، أليس كذلك؟».

وهنا، لم يستطع الرجل التفكير بأي شيء لطيف يقوله وسط ذهوله العارم.

فأكملت: «إنها هدية تذكارية من والدتي ولهذا السبب أرتديها، أعتقد أنها أصبحت عادة قديمة بأن تحتفظ بذكرى والدتك معك».

«إذن أعتقد أن باستطاعتك سماع صوت أمك من خلالها».

«صوت أمي؟ نعم، أظن أن باستطاعتي ذلك. إنها مصنوعة في اليابان؛ لذا فهي تصدر صوتاً مملاً وغير واضح تماماً، إنها تناسب امرأة يابانية فقط».

«دعيني أسمع صوتها».

وبلا مبالاة، أخذ يدها بهدوء وقرّبها إلى أذنه للمرة الأولى: «بإمكانك أن تسمعيها أليس كذلك؟ إن أمك تقول لك ألا تخرجي بصحبة رجل».

ابتسمت الفتاة بصوت مكتوم، فأحس بتيار من الرعشة منطلقاً من جسد المرأة نحو خده حيث كان يمسك بذراعها.

***

لا ينبغي لنا هنا أن ندين اختيال هذين الاثنين وغرورهما؛ فقد منح الغرور هذا الرجل قليلاً من الشجاعة في سبيل الحب بعد أن كان ذليلاً بسبب خوفه من النساء.

لذلك وباختصار، كما نرى هنا، فربما ما نطلق عليه الحب هو شيء سخيف للغاية لدرجة أن باستطاعته التعبير عن ذاته، وبغض النظر عن الأساليب والوسائل.

لكن وبالنظر إلى ما هو أبعد من هذا، فعلى الأرجح أن هذه الحادثة قد منحت حياة هذا الرجل دفعة ليخطو نحو عيش مشاعره على أكمل وجه، فربما ازدادت ثقته بنفسه لمجرد أنه لمس بخفة بشرة هذه المرأة.

«دعونا نعدّل على القصة: في المستقبل ستأخذ هذه المرأة الأنيقة ساعتها الذهبية إلى محل الرهونات مع صحبة طفل كانت قد أنجبته مؤخراً وما زالت تحمله على ظهرها».

التاريخ

كان للقرية الجبلية طريقٌ سريعٌ وبحالة ممتازة لا تتناسب مع أوضاع القرية المزرية، إلا أن وجهة هذا الطريق لم تكن تجاه هذه القرية الباردة؛ بل كان تجاه مكانٍ فوق الجبال نحو الجنوب وعبر شبه الجزيرة. عندما اكتمل الطريق، انتشرت الشائعات بين القرويين، بأن حرباً ستندلع قريباً، وأن هذا الطريق السريع سينقل الأسلحة والجنود إلى الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة.

وكما هو الحال دوماً، كان على القرويين أن يتخطوا الحجارة ويجتازوا الجسر المتأرجح ليصلوا إلى الينبوع الحار المجاور لنهر الوادي، وفعلياً كان الينبوع الحار في وسط الجدول وليس بجانبه، حيث تضرب الريشات في ذيل طيور الماء حافة الحوض.

لم تمرّ أسلحة من الطريق السريع كما اعتقد القرويون بلّ مرت سيارات عادية، ومن ثم جاء رجل غنيّ وعجوز، قال إنه شغوف ومولع بالحجارة البيضاء النقية التي يمتلأ بها النهر، وبنى فيلا، ليجلب المياه من مصدرها إلى فيلته، كما أحضر مياهاً ساخنة إلى مكان ما تحت شجرة الخوخ الجبلية في وسط القرية، وبنى حمامًا شعبيّاً للقرويين البسطاء، وأسماه، «حمام الخوخ الجبلي»، وفي المساء، كانت **فتيات القرية يقفزن** على صوت الفاكهة التي كانت

تساقط على السقف المصنوع من القصدير.

بنى الرجل العجوز أيضاً طريقاً صغيراً على طول الجدول، كما كبّر الينبوع القديم هناك وأنشأ حوضاً إسمنتيّاً ضخماً، واشترى الأرض التي تحاذي الجدول حيث حقول الأقحوان وعشب البامبا؛ فابتهج القرويون كما لم يبتهجوا من أي وقت مضى.

بعد حوالي عشر سنوات بدأ الرجل العجوز بتوسيع الينبوع ذي الثلاثة أقدام باستخدام المتفجرات. وبطبيعة الحال، بدا تصرفه هذا غير مستغربٍ، فقد أصبحت الأرض ملكه. بدأ الينبوع على الفور بالتدفق بشكل ضعيف، وأصبحت المياه فاترةً، وتصاعد البخار من البحيرة التي حفرها الرجل كما لو كان من مرجل وسط الجحيم.

تبادل القرويون النظرات المندهشة، واستمروا في تبادلها فيما بينهم مرات ومرات، ثم توجهوا إلى منزل الرجل العجوز الذي أغدق عليهم بذلك النعيم كله؛ فضحك الرجل منهم قائلاً:

«لا تفرحوا حيال أمور كهذه، لم أفعل شيئاً بعد، سوف أحفر حماماً جديداً للقرية، وسأجعله كبيراً بما يكفي ليتسع لألف شخص».

وصدق الرجل وفعل ما قاله لهم.

خُطِّط الحمام الجديد بقرميد من السيراميك الأزرق الفاتح، وبُني طابق ثانٍ يحتوي على عشرين غرفة لتبديل ملابس القرويين.

وفي فيلته، كان الرجل العجوز يكتب الشعر الصيني وقصائد الهايكو اليابانية، مادحاً فيها جمال منظر الجدول في الوادي، كما كان يستمتع بالخضار الطازجة التي يحضرها إليه القرويون كهدايا، أما الينبوع القديم فقد دفن تحت أوراق البلوط المتساقطة.

عندما مات الرجل العجوز، نصّب القرويون نصباً تذكاريّاً حجريّاً له.

فجاء ابن الرجل العجوز لحضور مراسم إزاحة الستار عن النصب، وقبل مرور أسبوعين على مجيئه، بدأ الابن على الفور ببناء نزل خاص بالينبوع الحار، فاختفى الحمام الشعبي خلف جدار حجري وأصبح حماماً خاصّاً وتابعاً للنزل.

تبادل القرويون النظرات المتوجسة، واستمروا في تبادلها فيما بينهم مرات ومرات؛ حتى استهزأ بهم الابن.

فردّ عليه القرويون: «إنك لا تشبه والدك على الإطلاق، إنك لا تملك قلب والدك أبداً».

«هممم.. أنا ابن والدي تماماً؛ لكني لست ضعيفاً كما كان هو، ولن أخدعكم كما كان يفعل معكم».

«يا للخسارة! لا يمكننا أن نمشي حتى على الطريق الذي بناه الرجل العجوز».

«يا لكم من أناس مثيرين للاشمئزاز، إنه طريق صغير ويتسع فقط لمرور السيارات، لماذا كنتم مصدومين عندما أدركتم للمرة الأولى الغرض الحقيقي لهذا الطريق، كان حريّاً بكم فتح أعينكم جيداً ما دام باستطاعتكم ذلك حينها، وأن تفكروا بالنوايا الحقيقية وراء بناء ذاك الطريق السريع».

مسقط الرأس

لم يستطع الكاتب الذي جاء لاستئجار منزل أن يمنع نفسه من الضحك عندما رأى طفلاً في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره واقفاً عند المدخل:

«لا تحاول أن تكون متذاكياً، فقط أرسل رسالة إلى والدتك واسألها عن هذا الأمر».

«إذا سألت والدتي، ستجيبك بالرفض، عليك أن تستأجره منّي أنا».

«حسناً، كم الأجرة إذن؟».

«حسناً، خمسة ين.»

«همم. أعرف السوق جيداً» تظاهر الكاتب بالجدّية، «تُعدُّ خمسة ين سعراً مرتفعاً جدّاً، قلِّلْ سعرك إلى ثلاثة ين.»

«انسَ موضوع المنزل»، أجابه الصبي دون اهتمام وأبدى استعداده لينطلق عائداً إلى الحقل، بينما خُدع الكاتب بهذا الأسلوب الطفولي في التفاوض، فقد كان مجبراً على الحصول على هذا المنزل الواقع أمام مبنى مكتب المقاطعة.

«وفي هذا الشهر فقط عليك أن تدفع الأجرة مقدماً».

«هل أعطي الأجرة لك؟».

«نعم. عليك أن تسلمه لي أنا»، وهزّ الصبي رأسه بثقة تليق بصاحب عقار؛ لكنّه مع ذلك لم يكن قادراً على حبس ابتسامة صبيانية عريضة فضمّ شفتيه بأسلوب جادٍّ.

كانت هذه الصفقات المالية التي تعلمها الطفل حديثاً أمراً مسلياً بالنسبة له فكان يقاوم الابتسام بصعوبة، وكانت هذه التجربة هي الثانية له في عقد صفقة.

كانت والدته قد سافرت إلى طوكيو لتعتني بابنتها الكبرى التي كانت على وشك أن تضع مولوداً؛ وبسبب ذلك لم تعد خلال شهر آذار بالكامل، فطلبت من الصبي أن يتبعها إلى طوكيو ولكنها لم ترسل له أي مال، وطوال ذلك الوقت أخذ الجيران في البيت المجاور بالاعتناء به، وعندما جاء بائع الخردة في زيارة إلى الجيران أخذه الصبي عنوة إلى منزله وباعه مجلات قديمة وملابس مهترئة، كان الصبي سريع التعلّم.

«هل لهذا أي قيمة؟».

أمسك الصبي بإبريق الشاي الحديدي من على مجمرة الفحم وعرضه على تاجر الخردة، استهوته هذه اللعبة أكثر فأكثر كل يوم، حيث كل شيء يمكن بيعه، نقّب الصبي باحثاً داخل المنزل البالي،

حتى أنه باع أفخر ملابس والده الراحل.

لو أنه فقط يملك خمسة ينّات إضافية لكان بإمكانه أن يسافر برحلة عودة إلى طوكيو. جعلت هذه الصفقات الصبي يشعر وكأنه إنسان راشد، وقادر كجزءٍ من هذه الحياة الغريبة والمتعبة أن يحصل على قوت يومه مثل أي شخص كادح آخر؛ لكنّه عندما تلقّى المال من بائع الخردة ومن الكاتب، شعر بوضوح ببؤس حياتهم وتعبها، إلا أنه ورغم هذا الشعور العاطفي شعر أنه أكثر من كان يستحق أن يربح بعد هذه التجارب الأولية، فقد عرف كيف بإمكانه أن ينجو ويبقى على قيد الحياة.

وصل الصبي إلى محطة «إينو» في طوكيو محملاً برائحة تفاح الأموري الخضراء على ظهره، تفاجأت والدته عندما رأته ولم تستطع أن توبخه، وأدركت أنها لن تعود للمنزل، فملأ هذا الإدراك صدرها كالماء.

كان ابنها الأكبر يعيش في طوكيو أيضاً، إلا أنه ظل يلومها لسنوات بسبب عدم بيعها المنزل القديم؛ ولأن بيعه سيوفر له رأس المال اللازم لتجارته؛ لكنها لم تستطع التخلي عنه، فازدادت بؤساً بمجيء هذا الصبي الصغير الذي باع ملابس زوجها ووالده الفاخرة كما لو كانت بالية، تلك الملابس التي احتفظت بها بينما باعت الكيمونو خاصتها من أجل العيش.

قال الصبي فور وصوله إلى منزل أخته: «سوف أنام لثلاثة أيام»، واستغرق في النوم على الفور.

كانت الأخت تقطن في الضواحي بقرب بحيرة كبيرة، وفي اليوم التالي ذهب الصبي للصيد وحده، وفي طريق العودة أحضر خمسة أو ستة أطفال معه وأخذ يتقاسم معهم أربع عشرة سمكة شبوط أمام بوابة المنزل.

كانت الأم والأخت تبكيان في المنزل، فقد قرر زوج الابنة أن يرسل الصبي ليتدرب عند مجصص كان يعرفه من مكان عمله، كان الرجل سيزور الصبي في ذاك المساء، فاعترضت الأم وقالت إنّها تفضل أن تعود بالصبي إلى القرية على أن ترسله بعيداً ليصبح عاملاً، ففقز الصبي حينها بطريقة حماسية كما لو أنه يقفز من فوق بركة وتكلّم:

«إذا كنتم ستتجادلون وتصرخون هكذا، فسأذهب وأصبح عاملاً حيثما شئتم وبسرور».

وبصمت، أخذت الأم ترتق جوارب الصبي، الذي أحضر معه بقايا كيمونو والدته غير المبطن وأغراضه الخاصة، وعلى الرغم من اقتراب فصل الصيف، فقد أحضر أيضاً جواربه الشتوية محشوةً في جذع عمود خيزراني مجوف.

هتافان

كانت الأخت الكبرى في العشرين من عمرها والصغرى في السابعة عشرة، كانتا تعملان في النبع الحار ذاته ولكن لصالح نزلين مختلفين، وكانت كلا الأختين جميلتين وحساستين، ونادراً ما كانتا تخرجان من النبع؛ لكنهما كانتا تلتقيان في مسرح القرية بين الحين والآخر.

كان هناك عرض مسرحي مرة كل شهرين، وخاصة خلال مهرجان «بون» في الصيف، وفي رأس السنة خلال عطلة المزارعين، وفي العطل الرسمية، وخلال مهرجانات البلدة. ودائماً ما كان يأتي زائرون جوالون إلى البلدة ليقدموا عروضهم الفنية لثلاثة أيام في كل مرة، وعندما كان للخادمات في النزل وقت فراغ كاف، كنّ يذهبن لرؤية العروض في ليلتين متتاليتين، وبطبيعة الحال، كانت تهرع الأختان للتمتع بالعروض، وللقاء بعضهما معاً، حتى ولو لم تخططا لذلك اللقاء، فقد كانتا تتحدثان لبعض الوقت ومن ثم تتفرقان، لتجلس كل واحدة في مقعدها، كانت الأختان متشابهتين جدّاً وجميلتين للغاية، لدرجة أن تحديق الناس فيهما كان سبباً لانزعاجهما طيلة فترة العروض، فظل الناس يتحدثون عنهما حتى بعد افتراقهما.

في إحدى المرات قال أحد الممثلين إنه أراد التأكد من أن تجلسا معاً أمام العرض، وأردف قائلاً: « إنه من الصعب النظر إلى كليهما في حال جلستا متباعدتين». فتابعت الأختان الجميلتان عرض الفيلم ذاك معاً، وعندما انتهى الفيلم وأضاءت المصابيح، احمرت الأختان خجلاً وأحنتا رأسيهما.

حدث أن تعرّف رجل يمكث في نزل الأخت الكبرى على امرأة تمكث في نزل الأخت الصغرى، فبادرها الرجل أولاً بسؤاله:

«من أين أنتِ؟».

«ليس لدي مسقط رأس محدد».

«هل كان مكوثك هنا طويلاً؟.»

«نعم، منذ شهر».

«وهل ستظلين هنا؟».

«لست متأكدة من ذلك، أعرف تقريباً الينابيع الحارة كلها في اليابان غرب هذا المكان، وهذا المكان هو أكثر مكان مسبب للملل، أنا عالقة هنا منذ شهر».

واصلت المرأة ثرثرتها عن انطباعاتها حول عشرين نزلاً مختلفاً، واصفةً واحداً تلو الآخر.

وقالت ضاحكة: «أنا ابنة فنان جوال، ولهذا علا شأني في هذا العالم».

وفي المرة الخامسة أو السادسة التي التقت به طلبت منه خدمة.

«هلّا أخذتني إلى نزل آخر؟ إذا تفضلت بأخذي إلى النزل التالي، سيكون ذاك كافياً بالنسبة لي، وإذا شعرت بالضجر منّي في أي لحظة يمكنك المغادرة».

أخبرته المرأة عن حلم حياتها، كان والدها فناناً ترفيهيّاً يتنقل مراراً بين النزل في الينابيع الحارة المحيطة بالمقاطعات الجنوبية. كانت تتشوق لرؤية الينابيع الحارة كافةً في اليابان، فعزمت أمرها على الانطلاق في هذه الرحلة البائسة، أخبرته انها كانت تنتظر في كل نزل رجلاً ليأخذها إلى النزل التالي، ومن هناك كانت تبحث عن رجل آخر ليأخذها إلى نبع حار نحو جهة الشمال، وبهذه الطريقة تنقلت في نُزل الشمال كافةً، ووصل عدد الينابيع التي زارتها إلى عدد مساوٍ لعدد المرافقين الذين التقت بهم.

«أنا هنا منذ شهر كامل، أشعر بالأسف من أجلك وكيف عليك تحمل إزعاجي وكآبتي كل يوم؛ لكنني لا أود أن أموت كمتسولة قبل أن أصل إلى النبع الحار في أقصى نقطة في الشمال من «هوكايدو»، أتساءل باستمرار عن فارق عدد الينابيع الحارة بين هذا المكان وذاك، فيجب عليّ الوصول إلى هناك ما دمت شابة،

فلن يأخذني أحد عندما أكبر».

فرّد عليها الرجل بمرح: «هذا رائع، سأؤمن بحلم يقظتك هذا».

***

كانت سيارة مكشوفة تنتظر الرجل، فيما خرجت بضع خادمات من النزلين ليشاهدن الرجل والمرأة يغادران، وبدورهما التقت الشقيقتان بجانب السيارة.

وبينما انطلقت السيارة التي تقل الرجل والمرأة، التفتت المرأة في مقعدها نحوهما ولوحت بباقة من زهور الميسكانتوس» وهتفت، «مرحى، مرحى، مرحى!!» وداعاً..».

«وداعاً!» هتفت إحدى الخادمات، ومن ثم صاحت بحماسة وقد شجعها هتاف المرأة المغادرة في السيارة «مرحى!».

«مرحى!» انطلقت بعدها ستة أو سبعة هتافات أخرى، كالعدوى.

«مرحى!».

«مرحى!».

«مرحى!».

استمرت المرأة في هتافها حتى اختفت بعيداً، «مرحى، مرحى، مرحى!» بينما ضمَّت الأختان يديهما وهما تصرخان وتهتزان من

الضحك، ثم نظرتا إلى بعضهما بعضاً، ورغبتا أن تعانقا بعضهما وأن ترقصا؛ ولكن بدلاً من ذلك واصلتا ضم كفيهما معاً ورفعتاهما عالياً في الهواء، وهتفتا ببهجة حقيقية مرتين:

«مرحى!».

«مرحى!».

حب مخيف

لقد أحب زوجته بشدة، أو بالأحرى، لقد أحب تلك المرأة- سواءً كانت زوجته أو لم تكن- حبّاً أكثر من اللازم، ولقد أدرك أن موت زوجته المبكر لم يكن سوى عقاباً من السماء على عمق حبه لها، فهذا كان السبب المنطقي الوحيد الذي استطاع اختلاقه في ذهنه لوفاتها.

بعد موتها، أقصى الرجل نفسه بتطرف بالغ، مبتعداً عن النساء كلهن على اختلاف أنواعهن، حتى أنه لم يقم بتوظيف امرأة لتعتني بمنزله، وبدلاً من ذلك وظف الرجال فقط ليقوموا بأعمال الطبخ والتنظيف.

لم يكن السبب بفعله كل ذلك أنه كره النساء كلهن، وإنما ببساطة لأن كل امرأة كانت تذكره بزوجته. فمثلاً، بالنسبة له كانت تنبعث رائحة سمك من النساء كلهن، تماماً كما كانت رائحة زوجته. وبينما ظلّ الرجل متسائلاً فيما إذا كانت طريقة شعوره بالأمور على هذا النحو عقاباً من السماء أيضاً؛ لأنه أحب زوجته أكثر من اللازم، فقد قرر أن يسلّم نفسه لحياة تخلو من أثر أي امرأة.

إلا أن هناك امرأة واحدة كانت تقطن منزله ولم يكن بإمكانه أن

يفعل شيئاً حيالها، فقد كانت لديه ابنة، وبالطبع كانت الابنة تشبه والدتها أكثر من أي امرأة أخرى في هذا العالم.

***

بدأت الفتاة بارتياد المدرسة المتوسطة.

وفي إحدى المرات عندما أضيء المصباح في غرفة الفتاة في منتصف الليل، استرق النظر من ثقب جدار فاصل أملس، فرأى الفتاة تحمل مقصاً، كانت ركبتاها مرفوعتين ومفتوحتين جانباً في أثناء استخدامها للمقص، وكانت تحني رأسها وتنظر إلى الأسفل مطولاً.

في اليوم التالي، وبعد أن غادرت الفتاة إلى المدرسة، شعر بارتجافه عندما نظر خلسة إلى شفرات المقص البيضاء.

وفي ليلة أخرى، أضيء المصباح في غرفة الفتاة مرةً أخرى، وواصل هو اختلاس النظر من ثقب الجدار الفاصل، رأى هذه المرة أن الفتاة كانت تطوي قماشة بيضاء لتحملها خارج الغرفة إلى الحمام.

كان بإمكانه أن يسمع بوضوح صوت المياه الجارية، ثم سريعاً عادت الفتاة لتشعل النار في مجمرة فحم، واضعةً القماشة البيضاء بجوارها، ومن ثم جلست بجانبها، وانفجرت بذرف الدموع،

عندما انتهت الفتاة من بكائها وتوقفت، بدأت بتقليم أظافرها فوق القماشة، ومن ثم أسقطت الأظافر في مجمرة الفحم بعد أن جردتها من القماشة، أشعرته رائحة الأظافر المحترقة بالغثيان.

***

رأى الرجل في أحد مناماته حلماً أن زوجته الميتة أخبرت طفلتها أنه اختلس النظر إلى سرّها.

***

توقفت الفتاة بعد حلمه ذاك عن النظر إلى وجه أبيها، لم يكن الأب يحب ابنته، فارتجف ذاهلاً عندما فكر أنه في يومٍ ما سيلقى رجل ما عقاباً من السماء لأنه أحب هذه الفتاة.

وأخيراً، وفي إحدى الليالي، نظرت الفتاة إلى حَنجرة والدها وهي تحمل خنجراً في يدها.

كان يعرف أن هذا سيحدث بلا شك، فقد كان هذا عقاباً له؛ وهو يؤمن به لأنه أحب زوجته بشدة، أحب امرأة واحدة أكثر من اللازم. تيقن الأب أن الفتاة ستهاجم عدو والدتها، فأغلق عينيه باستسلام، وانتظر انقضاض طعنة الخنجر.

(انتهى)...

ياسوناري كاوباتا

تساءلتُ بدوري أثناء متابعتي لكتابة هذه اليوميات: ماذا سيحلّ بجدي عند إنتهائي من الكتابة، ماذا سيحدث لجدي المؤسف. كنت قد أعددتُ وجهزت مائة من الأوراق الفارغة; إذ كنت آمل أن أستمر بالكتابة حتى أصل إلى مائة ورقة، وكنت قلقًا للغاية من إمكانية موت جدي، قبل أن أصل إلى الورقة مائة. ربما كنت بطريقة ما، أؤمن أن جدي سيكون بأمان وسينجو إذا ما تمكنت من الوصول إلى الورقة المائة وهو على قيد الحياة. والآن وبما أنني أشتبه في أنه ربما بدأ بالاحتضار، تمنيت من كل قلبي أن أنقل على الأقل صورته الحالية إلى هذه اليوميات طالما مازال باستطاعتي فعل ذلك حتى الآن.

ISBN-13: 978-9921-721-16-4

+965 5222 4643
@sophia_kwt
sophiakwt17@gmail.com